الطبعة الثانية

أبناء ودماء

رواية



لمياء بنت ماجد بن سعود

دار الساقي

لمياء بنت ماجد بن سعود

أبناء ودماء

رواية



بيروت ـ لندن

أَبْنَاءٌ وَدِمَاءٌ

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

خطوط العناوين: علي عاصي

الطبعة الأولى ٢٠١٠
الطبعة الثانية ٢٠١٠

ISBN 978-1-85516-648-6

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٠٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٠٩٦١
e-mail: info@daralsaqi.com

إليك يا من اختارك الله في رحابه

إليكم يا من أحيا بكم ولكم

(١)

لم يكن قصر السيّد حمد هكذا. لقد تبدّلت أيامه ولياليه منذ وفاة إحدى بنات العائلة في ظروف غامضة. تردّدت في الجوار أخبار كثيرة تتصل بواقعة موت الفتاة الجميلة. ثم فعل الزمن فعله، ونسي الناس وباتوا يتداولون حكايات أخرى عن تداعي هذه العائلة وغياب كبارها وانكفائهم الواحد تلو الآخر.

كان القصر في أيام عزّه قبلة الأنظار وملتقى وجهاء العوائل في المنطقة الشرقية بالسعودية. وكثيراً ما تطلع إليه الناس على أنه لوحة معمارية فريدة. وكانت أسواره العالية مغطاة بالأشجار كأنها لردّ صيبة العيون والحسد، أو ليبقى المكان بمنأى عن الفضوليين. نسجت المخيّلات أقاويل كثيرة حوله. قال بعضهم إنه بلدة صغيرة داخل بلدة كبيرة. وأشاع آخرون أنه يتألف من أربعة قصور، سقوفها من القرميد تعلوها قباب قرمزية، ومبنيين للخدم تحوطهما حديقة بديعة تتوسّطها بحيرة،

إضافة إلى حدائق خلفية شاسعة تمتدّ بساطاً أخضر متموّجاً حيث تمرح وترمح الخيول، وأزهار ونباتات نادرة منسّقة تنسيقاً جذّاباً لم يسبق أن رأتها عين في ذلك الحين. وقيل إن هنالك ستة قصور، تبلغ مساحة كل منها ألفَي متر مربّع، وخمسة منازل للخدم على أقلّ تقدير.

الواقع أن المنزل كان مكوّناً من قصرين كبيرين على الطراز الأندلسي، مساحة الواحد أربعة آلاف وخمسمائة متر، بينهما ممرّات من الرخام الإسباني، مطعّمة جدرانها بالفسيفساء، وتعكس الفوانيس المزخرفة الروح العربية الجميلة. قطن السيّد حمد وأفراد أسرته في القصر الأول، وأمّه وشقيقتاه وبعض القريبات في القصر الثاني. وفي إحدى زوايا المنزل، أُقيم مبنيان للعمّال والخدم.

وتقرّباً من اللّه، شاد السيّد حمد جامعاً قرب المنزل، يتّسع لنحو ثلاثمائة مُصلٍّ، ويغلب على تصميمه الطابع الأندلسي. وكان الساكنون في الجوار وأهالي البلدة يجتمعون فيه لأداء صلاة الجمعة والأعياد.

لم يكن السيّد حمد رجلاً عادياً، بل استثنائي. هوى اقتناء الجياد وتربية الصقور على غرار معظم الذين تعود جذورهم إلى البادية. فهو من قبيلة نجدية عريقة في

المنطقة الوسطى. وكان جدّاه ووالده من كبار تجّار الأراضي. لذا ألمّ إلماماً دقيقاً بشؤون ذلك النوع من الأعمال، بعدما حلّ في أحيان كثيرة محلّ أبيه وساعد إخوته. ثم شقّ لنفسه طريقاً مغايراً لميله الشديد إلى العلم. سافر إلى القاهرة، والتحق بإحدى جامعاتها متخصّصاً في هندسة البترول. وكان في عداد الطلاب المجتهدين. بعد التخرّج، عاد إلى الوطن وبدأ العمل في وزارة البترول. وسرعان ما تألق حتى بات واحداً من أنشط الموظّفين. ومكافأة له، رُقي وأُوكلت إليه مهمّة متابعة مشروعات البترول في المنطقة الشرقية، وهي أكبر المشروعات القائمة في السعودية آنذاك. وللقبول بالمهمة الجديدة، اشترط انتقال شقيقتيه معه كي تكملا الدراسة لإيمانه بأهمية التعليم الذي ينير العقل ويوسّع الآفاق، علماً أنهما كانتا في سنّ الزواج، وبالطبع رافقتهم الأم كي ترعاهما.

عندما رأى السيّد حمد أن الوظيفة تكبّل طموحه، وتحدّ من تطلّعاته، سعى، من دون أن يتخلّى عنها، إلى إطلاق مورد رزق جديد في مجال تطوير العقار وتحسينه، فأنشأ قسماً للمقاولات بعدما تأكّد له أن المنطقة تنقصها المباني، وكعادته أكمل الناقص.

أجمع الذين عرفوه على أنه متمتّع بشخصيّة واثقة،

وحضور من الصعب تجاهله. ملامحه عربية، عيناه تتصفان بالقسوة والحنان، وبالذكاء والوداعة، لحيته خفيفة، أنفه طويل قليلاً، بنيته متوسّطة لكنها صلبة، يداه تشيان بالقوّة حتى لدى المصافحة. باختصار، كان رجلاً حقيقياً وليس واحداً من أشباه الرجال. كلمته مسموعة، ورأيه محترم. وكان مقصداً لطالبي المشورة والنصح في مجمل الشؤون، ومحبّاً لعمل الخير ومساعدة الغريب قبل القريب.

منذ عهد الفتوّة، تصالح مع نفسه. فاعتاد كل صباح الخضوع لجلسة استرخاء وتأمّل، تدوم ساعة تقريباً. فكان صوت المؤذن وتغاريد الطيور المتنوّعة والنسمات العليلة تطرد من فضاء نفسه الغيوم السود، وتجلب إليها الصحو والصفاء. وقد ثابر على مواصلة هذا الطقس الصباحي إلى أيامه الأخيرة.

أتقن ركوب الجياد حتى أصبح من الفرسان المهرة. وكان ميّالاً إلى اكتشاف أنواع أخرى من الرياضة، وإذا راقه أحدها بعد التجربة، زاوله وبرع فيه. أمّا ذوقه الفني فرفيع جداً. فخلال دراسته في القاهرة، شُغِف بأصوات أمّ كلثوم وعبد الوهاب وأسمهان وفريد الأطرش وعبد الحليم. لكنه لم ينجذب كثيراً إلى الأخير الذي مثّل في أغانيه وأفلامه، العاشق المهزوم اللاهث وراء

الحبيبة كي تعود إليه. وهذا الخنوع لا يتفق مع مبادئ السيّد حمد المستعدّ لتحمّل ألم الفراق على أن تبقى كرامته فوق كل اعتبار. لاحقاً، أحبّ محمد عبده وطلال المداح، فحفظ عدداً من أغانيهما عن ظهر قلب. عرف أيضاً الموسيقى الغربية، وأهم السيمفونيات، فلم تجتذبه.

تزوّج السيّد حمد إحدى قريباته، وهي شابة فاضلة، مطيعة، تسعى إلى إسعاد زوجها بشتّى الأساليب. فإنْ حاول أحد الخدم إعداد قهوة زوجها العربية، تثور وتغضب كأنه تعدّى حدود مملكتها. واشتُهرت بتفننها في الأطباق اللذيذة، فضلاً عن الترتيب والنظافة. لذلك شبّه بعض الضيوف بيتها بفندق خمس نجوم. وقد أنجبت ولدين، عادل وتركي. واستغرب كثيرون اكتفاء رجل ميسور كحمد بولدين ليس غير. لكنهم لم يعرفوا أنه هو الذي شاء ذلك كي يحسن تربيتهما ورعايتهما. وعندما تأجّجت رغبة أمّ عادل في الإنجاب للمرة الثالثة، لم يمانع السيّد حمد. لكنّ اللّه لم يستجب. خضعت الزوجة للأمر الواقع، وراحت تهتمّ بتنشئة ولدَيْها، وكان خوفها كبيراً عليهما. فلم يتقبّل عادل تلك الرعاية المتشددة، ففي نظره، هو ذلك الرجل الكبير الذي لطالما رأى أباه رجلاً خارقاً، وتمنّى أن يصبح، مثله،

نسخة منه، عندما يشبّ ويكبر. مراراً حاولت أمّه أن تقنعه باللعب مع أخيه وبقية الأطفال بدلاً من مجالسة أبيه ومرافقته إلى العمل، وكان جوابه:

- أنا رجّال مكاني مع أبوي مو مع أخوي.

تقتنع وتسكت على مضض. استأثرت بتركي تمنحه المزيد من الحبّ والحنان بل مشاركته في كل كبيرة وصغيرة. فمثلاً إذا أراد شيئاً ذهب إليها لا إلى أبيه. وهذا ما كان يغضب السيّد حمد فيختلف مع زوجته، وحجته أن التدليل الزائد سيجعل منه اتكالياً أنانياً لا يحبّ الخير إلا لنفسه. لكنها لم تأخذ كلامه على محمل الجدّ. هذا لا يعني أنها قصّرت في حقّ عادل أو فضّلت تركي عليه. في المقابل، لم يلتفت عادل إلى ما يحدث بين أمّه وأخيه، فقد كان مسحوراً بعالم أبيه وعمله وجلساته مع ضيوفه، وبالأحاديث التي تدور على الخيل والصقور ورحلات الصيد أو «المقناص»، التي كان يحلم بها إلى أن يحين موسمها.

(٢)

كبر عادل وتركي. وفيما راح الأول يجتهد ويكدّ كي يتمّ المرحلة الثانوية، على أمل أن يلتحق بالجامعة ليدرس إدارة الأعمال حتّى يصبح على دراية كاملة بكيفية مساعدة أبيه وتطوير أعماله، كان تركي لا يولي الدراسة الاهتمام المفترض، مع العلم أنه لم يرسب في أيّ من سنوات الدراسة. كذلك لم يكن مشغوفاً بالعمل ولا ميّالاً إلى الالتحاق بشركة والده.

ولمّا اجتاز عادل السنة الجامعية الثانية اقترح على والده تكملة السنتين الباقيتين في الخارج حتى يلمّ بالأساليب الجديدة وبعالم المعدّات الحديثة، ويحصل على التوكيلات التجارية. فهذه العناصر مجتمعةً ستمضي بالشركة إلى عهد آخر مختلف. رحّب السيّد حمد بالاقتراح الذكي شرط أن يتزوّج عادل قبل السفر كي يحصّنه من الوقوع في الحرام. وافق عادل على الفور خصوصاً عندما علم أن والده اختار عروساً له ابنة عمّه

التي لطالما سمع أنها ملكة من ملكات جمال الكون. وما هي إلاّ أسابيع قليلة حتى جرى الزفاف، وسافر العروسان إلى بيروت حيث أمضيا شهر العسل، ومنها طارا إلى لندن وأقاما فيها.

بعد خمسة أشهر، أبرق عادل إلى والده يبشّره بأن زوجته حامل في الشهر الرابع. لم تتسع البسيطة كلها للفرح الذي راود السيّد حمد عندما قرأ الخبر السّار. فكان لا يمشي بل يطير سعيداً بدنو ولادة أول حفيد له. ولدى حلول موعد الإنجاب حدث أمر ليس متوقّعاً. لقد حالت أسباب صحّية دون سفر الزوجة بالطائرة لتضع مولودها في وطنها، فاستقرّ الرأي عندئذ على أن تتمّ الولادة في أحد مستشفيات لندن. لم تكتمل فرحة عادل لأن قلقه وخوفه على زوجته أطفآ إحساسه بالسعادة. فأبلغ والديه وبيت عمّه القرار المُتخذ بناءً على نصائح طبيّة، واتّجه الجميع على جناح السرعة إلى لندن، لكن ما كتب قد كتب. توفيت الأمّ عقب ولادة أحمد. رضي عادل بحكم اللّه واستوعب المأساة. وبرغم الضبابة الكثيفة التي انتشرت في طريقه، قرّر أن لا يترك عاصمة الضباب، إلاّ بعد إكمال الدراسة وحيازة الشهادة حتى لو حرم من طفله سنة وبضعة أشهر.

مرّت الأيام تلو الأيام، ونشأت علاقة حبّ بين

عادل وفتاة سوريّة تدرس الفلسفة في الجامعة نفسها.
شابّة جميلة، تنحدر من عائلة كبيرة معروفة، مربوعة القامة، بيضاء، شعرها بنيّ كثيف، عيناها لوزيتان زرقاوان، أنفها يشبه سَلّة السيف، يعكس قوّة شخصيّتها واعتزازها بنفسها، شفتاها مكتنزتان قليلاً تصرخان بأنوثة عذراء تستحي أن يلاحظ خجلها أحد. هكذا وصفها عادل لأبيه عندما عاد إلى الوطن وكان حائراً مضطرباً، خوفاً من أن يرفض أبوه ذلك الزواج إذ ليس مألوفاً أن يقترن أحد من عائلة حمد بأجنبية، فبنات العائلة أولى برجالها. لكن السيّد حمد لم يعترض، بل بارك الزواج خصوصاً بعدما سأل عن الفتاة وتأكّد أنها ستكون خير زوجة وأمّ.

في الطائرة، وهما متّجهان إلى دمشق لخطبتها، قال الأب:

- ما استغربت إني وافقتك على هالزواج؟
- بصراحة، لا.
- طيّب ما سألت نفسك ليش؟
- سألت كثير، لكن أنا عارف إني إن شاء اللّه ما حطلب هالطلب، إلا وأنا متأكّد أنه نسب يشرّفك قبل ما يشرّفني.
- ما عندي شكّ، لكن أهم شيء خلاني أوافق أنها

متعلّمة. ومو كذا وبس وفلسفة يعني فاهمة الدنيا، وزيد على هذا أنها سافرت تكمل دراستها بالخارج. تعرف يا ولدي إني كنت أتمنّى أن أمك تكون متعلّمة. هي ونعم الحرمة لكن اللي ناقصها العلم. وصدّقني لو تعلّمت كانت أتغيّرت أشياء كثير في حياتنا. وأخوك تركي كان طلع أفضل من كذا، لكن وش نسوّي عاد، هذا اللّه وهذي حكمته، واللّه يستر عليه.

كان السيّد حمد يتكلم كأنه يرى في تركي شيئاً لا يراه غيره.

رد عادل:

- لا اللّه يحييك، تفاول خير. أخوي تركي قلبه طيب. هو بس مدلّع شوي.

- اللّه يحفظه ويهديه ويكفيه شرّ نفسه.

غادر السيّد حمد وابنه صالة المطار، واستقلا سيارة إلى منزل العروس، فيلاّ كبيرة قائمة على أرض خضراء يحيط بها سور تزيّنه أشجار تضج بزقزقة العصافير معظم ساعات النهار. وعقب التعارف وعبارات المجاملة، طلب الأب يد الفتاة. وافق أهلها، لكنّ أباها اشترط أن تنجز الدراسة قبل حصول الزفاف.

(٣)

التحق تركي بالجامعة، قسم إدارة الأعمال، ليس لحبّه هذا المجال، بل لأنه يريد أن يحظى بكل ما حظي به أخوه. حتى إنه في عطلة الصيف، وبعد إتمامه السنة الثانية، طلب إلى أبيه أن يسمح له بإكمال الدراسة في الخارج، وأن يتزوّج قبل السفر، تماماً على غرار ما فعل عادل. استغرب الأب هذا الطلب لأن تركي كان من النوع الذي يصعب تصديق التزامه بفتاة واحدة، لكثرة مغامراته والعدد الهائل من المكالمات التليفونية التي كانت شغله الشاغل. أمّا الأمّ فقالت:

- إن شاء اللّه يكون ربّي هداه.

وافق الأب، لكن المفاجأة أن تركي لم يكن يريد الارتباط بإحدى بنات عمّه، بل اختار عروساً بنت أحد المسؤولين في الدولة حتى يضمن المال والسلطة معاً، ويصبح أفضل من أخيه عادل. لم يمانع الأب وخطب له

الفتاة. تمّ الزفاف بعد فترة وجيزة وسافر تركي وعروسه إلى لندن. وفور وصوله التحق بالجامعة ليكمل الدراسة مؤجّلاً شهر العسل إلى وقت آخر.

عقب سفر تركي، عاد عادل إلى الشرقية ليجد أن معالم الشيخوخة بدأت تغزو شباب أبيه الذي ناهز عمره الستين. قَبِل عادل بالسكن هو وأسرته في القصر الآخر بسبب تعلّق والديه بابنه أحمد، عوضاً عن استقلاله في منزل منفصل عن العائلة، خصوصاً أن القصر أصبح خالياً بعد زواج خالتيه واستقرارهما في الرياض.

كانت فرحة عادل بعودته إلى كنف أبيه، أو الرجل الخارق كما كان يسمّيه، فائقة الوصف. وبدأت عجلة الحياة دورانها، ونقل عادل كلّ ما تعلمه من أساليب تجارية جديدة إلى الشركة واستطاع أن يحرز تقدماً واضحاً عزّزه بالحصول على ثلاثة توكيلات أجنبية متخصّصة في مواد البناء، وهذا ما استدعى إقامة شركة جديدة للاستيراد والتصدير، ومصنعَيْن، فأصبحت الشركة تضمّ مجموعة شركات كبيرة.

في هذه الأثناء، اقترح السيّد حمد أن يكتب لعادل الشركات التي أنشأها اعترافاً بنجاحه، وتقديراً لنشاطه المستمر، وخصوصاً أنّها ثمرة جهده. ويكون هو شريكاً صامتاً. رفض عادل وكان ردّه:

- كلّه من خيرك، اللّه يطوّل بعمرك. لكن هذا مو حلالي لحالي. أخوي تركي له نصيب.

ليس مستغرباً أن يتخذ عادل موقفاً كهذا. إنه واحد من مواقف كثيرة سبق أن اتخذها، جعلت أباه يثق به ثقة عمياء.

عاد تركي إلى الوطن بعدما نجح بتقدير جيّد. لكنه لم يتمتّع بالحماسة نفسها التي تمتّع بها أخوه لدى عودته. عدا أن علاقته بزوجته كانت متوتّرة. فهي لم تَحْمل في تلك الفترة. استشارا أطباء كثراً في لندن لمعرفة السبب، وأجمع هؤلاء، بعد الفحوص الضرورية، على استنتاج واحد: «لا موانع طبية، ربما أسباب سيكولوجية. يحدث ذلك مع كثيرات. ليس مستبعداً حدوث إنجاب بعد حين».

لم يشأ تركي أن يطلقها كي لا يخسر نفوذ والدها. وبعد العودة ببضعة أشهر، حدث الحَمل ورزقا مولوداً سمّياه زياد. كان المولود الجديد يشبه أمّه التي لم تنجب سواه، ربما من جراء سوء معاملة زوجها لها وطبعه الفظّ. فقد كان السيّد تركي عصبيّاً، عابساً على الدوام، متأففاً، تحيط قلبه غمامة قاتمة من فرط أنانيته، وكان كذلك مدّعياً مغروراً كأنه وحده الذي يفهم وجميع الناس حمقى وأغبياء.

لم يكن صائباً قرار مشاركته أخاه في المنزل بناءً على رفضه أن يستقلّ هو وأسرته في منزل خاص. فقد سبق أن عرض والده عليه أن يبني له قصراً مطابقاً تماماً لذلك الذي يسكنه عادل، في إحدى حدائق المنزل الكبيرة. وبعدما تعددت الخلافات لكونهما مقيمين في المكان نفسه، اقترح الأب على عادل الإقامة معه، وترك المنزل لأخيه. أجابه عادل بشيء من الفطنة التي ورثها منه:

- لا اللّه يحييك. أعرض على تركي الأول. لو قال لا، وقتها أنا أجي. ما أبيه يحسّ أنك مفضّلني عليه، وأنك تبيني معك، وهو لا.

- اللّه يرضى عليك ويرضيك يا ولدي.

فضّل تركي البقاء في المنزل إرضاءً لرغبة زوجته، بحسب زعمه. لكن ذلك لم يكن صحيحاً. فهو دوماً ينكر وجود مشاكل بينه وبينها. فالصورة التي يرسمها للناس لا يمكن خدشها، وهي تدل على أنهما ثنائي غارق في الحبّ تماماً كحال أخيه وزوجته. لذا أحبّ أن يأخذ راحته في الشجار معها من دون علم أحد، وفي الوقت نفسه، يصبح في مكان خاص به، أي في وضع أفضل من وضع عادل المقيم في منزل أبيه.

قبل مغادرة عادل المنزل بأيام، تشاجر تركي وزوجته، وسرعان ما خرج عن طوره ومدّ يده عليها.

ففرّت، فتحت الباب، ركضت مستنجدة بزوجة عادل، وتركي يعدو وراءها، شاتماً الساعة التي عرفها فيها، وعيناه تقدحان غضباً. وصودف وصول عادل، فلم يعره اهتماماً، وأكمل مطارداً زوجته المرتعبة. فأوقفه عادل:

- اللّه يهديك يا تركي، أيش صار لكل هذا؟

- شيء ما يعنيك، حرمتي وأنا حرّ فيها.

- قبل ما تصير حرمتك، هذي بنت ناس وما في رجّال محترم يمدّ يده على حرمة. أنت ما تربّيت على كذا، ولا تزوّدها وأقصر الشرّ.

- أتربيت مثل ما أتربيت. وأنت اللي أقصر الشرّ ولا تدخل نفسك في شي ما يخصّك.

وبنبرة حادة عدائية قال تركي بعدما دفع عادل دفعاً قويّاً كي يفتح له الطريق: «وخّر عنّي». فما كان من عادل إلاّ أن ثبّته من الكتفين، وردّ بنبرة لم يسمعها تركي من قبل أشعرته للمرة الأولى بالخوف من أخيه الأكبر:

- اسمع. لو مانت عارف تحترم اللي أكبر منك، أنا أعرف أخلّيك تحترمني غصب. الحين بتدخل وتعتذر عن مدّ اليد، وإلا أقسم باللّه ما يردّني إلاّ أبوك.

نزل تركي على رغبة أخيه واعتذر إلى زوجته. لكن ما في داخله لم يتغيّر، بل ازداد كرهه لها، وحقداً عليه.

(٤)

عرفت الشيخوخة طريقها إلى السيّد حمد، فتلاشت عافيته مع استفحال المرض شيئاً فشيئاً. وفي نهاية الأمر، أجمع الأطباء على ضرورة نقله إلى لندن لكي يحظى بأفضل علاج. سافر السيّد حمد يرافقه ولداه وزوجته. حالما تأكدّ للجميع أن العلاج سيستغرق وقتاً طويلاً، وتقتضي دواعي العمل ذهاب أحد الولدين لمتابعة سير إدارة الشركات طلب عادل إلى أخيه العودة مغتنماً المناسبة كي يثبت له أنه محلّ ثقته وثقة أبيهما.

عاد تركي وتولّى إدارة الشركة. لكنه لم يكن على دراية كافية بمجريات العمل، فبدأ المديرون يتململون، واضطرّ بعضهم إلى الاتصال هاتفياً بعادل لإبلاغه أن ثمة قرارات اتُّخِذت قد تضرّ بالعمل ماديّاً ومعنويّاً، وأن أخاه يرتكب هفوات كثيرة، وهو يدير الأذن الطرشاء إلى كل ناصح ومرشد من ذوي الخبرة. وكان عادل يجيب دوماً:

- هذي أوّل مرّة يستلم فيها شغلنا، فما فيها شي لو أخطأ.

كان تركي ينفي وجود مشكلات في الشركة، ويردّد متى سأله أخوه عن حال العمل:

- لا تقلق. تراني متخرّج من نفس الجامعة يا خوي. توكّل على اللّه بس.

لم يشأ المديرون نقل الحقيقة كاملة إلى عادل. فقد كان تركي يطبّق أساليب ملتوية خلافاً للقواعد التي أرساها السيّد حمد، والتي كانت أساس ثروته ونجاحه، وأهمّها الصدق والاستقامة واحترام القوانين.

وتفجّر الخلاف حين رفض تركي أن تصرف الشركة حوافز الموظّفين السنويّة، المنصوص عليها في عقود العمل. وأعلن بالفم الملآن:

- كفاية عليهم النسبة، أما حوافز لا يحلمون فيها.

ثار العمّال واحتجّوا مناشدين المسؤولين عنهم التدخّل والسعي إلى وقف الإجحاف. وهددوا بالإضراب، وأرسلوا مذكرة اعتراض بالبريد إلى السيّد عادل، وهم واثقون بأنه لا هو ولا السيّد حمد يرضيان بأن تُهضم حقوقهم.

ومنعاً للمفاجآت غير السارّة، كان لا بدّ من سفر عادل أسبوعاً لمعالجة الوضع، خصوصاً أن مدير مكتبه في الشركة أعلمه أن الأمر بات بالغ التعقيد. لكن الأطباء تمنّوا عليه البقاء، فأبوه في وضع صحيّ دقيق، وقد

يفارق الحياة بين لحظة وأخرى. ثم ليس مستحسناً أن يترك والدته بمفردها تواجه واقعاً كهذا، خصوصاً أن صحتها هي أيضاً ليست مستقرة. وكان الحلّ الوحيد أن يصرف حوافز الموظفين بموجب قرار منه على رغم أنف أخيه. هذا الموقف أشعل الضغينة داخل تركي، وبدأ حقده يأخذ شكلاً أعنف حيال أخيه. أما عادل فلم يضمر شرّاً له، وهو لم يتعمّد إحراجه وسط العمال والموظّفين. لقد أراد إنهاء المسالة سريعاً كي يلتفت إلى أبيه. لم يشعر بالذنب لحظة واحدة، لأنه قبل اتخاذ القرار، هاتف أخاه وطلب منه صرف الحوافز المستحقة، وتكرّر رفض تركي:

- هذا هدر للمال والعمال يأخذون حقّهم وزيادة. ما في داعي للدلع الزايد.

ذات ليلة، تدهورت فجأة صحّة السيّد حمد، واجتاحته غيبوبة عميقة. أخفق فريق الأطباء في إنقاذه، ففارق الحياة. لم تزل كلماته الأخيرة تموج في وجدان عادل:

- اسمع يا ولدي، لا أوصيك على تركي، لا تفارقه في شغل أو في بيت لكن في نفس الوقت انتبه منه، وانتبه على بيتك وعيالك. وأمانة إنك تلمّ شمل العيلة وتحافظ على اسمها. وأنصف حتى لو الحقّ على

رقبتك. وحطّ أمّك على راسك وخلي ربّك دايم بين عيونك. وإن شاء اللّه إني ما قصّرت في شي معاكم.

ولم يمض شهران على رحيله حتى توفّيت زوجته. كأنها رفضت أن تعيش بعد غيابه.

عبرت السنون متسارعة، وأطلت على دنيا عادل طفلة جميلة سمّاها سارّة.

كبر الصغار والتحقوا بالمدارس ثم بالجامعات. اتّصف زياد بشخصية ضعيفة، وقد اعتاد الهروب من والده، في حين كانت أمّه لا تكترث إلا لنفسها وجمالها وتلبية دعوات العشاء التي تستمر إلى آخر الليل، كأنها يئست من إصلاح علاقتها بتركي، فقررت أن تعيش حياتها غير عابئة بما يحدث.

ارتاد أحمد وزياد المدرسة عينها. تخرّج الأول قبل الثاني بسنتين، والتحق بكلية الهندسة. ثم لحق به زياد إلى الكلية نفسها ملبّياً رغبة أبيه لا رغبته هو الميّال إلى التاريخ والآثار. ولمّا وصل أحمد إلى السنة الثالثة، وكان مشغوفاً بالهندسة الأوروبية، وحالماً بإكمال الدراسة في بلد أوروبي، طرح على أبيه فكرة السفر، فرفض عادل ليس لأنه غير محبّ للعلم بل لأنه يريد بقاء ابنه قريباً منه. ثم وافق وسافر أحمد لكن ليس بمفرده.

فقد اضطر إلى أن ينتظر ابن عمّه زياد ريثما يتمّ إجراءات السفر كي ينطلقا معاً.

انبهر أحمد بهندسة المباني والشوارع في لندن. كان يسير كأنه في حلم، فالساعات تمرّ سريعة وهو يتجوّل. لم يترك متحفاً أو مزاراً تاريخياً إلا قصده. وسعى أيضاً إلى تنمية هوايته التي كانت السرّ الأكبر في حياته وهي النحت، والتي هي في نظر أبيه «حرام وما يجوز». كان يومه مقسّماً ما بين الجامعة ودرس النحت ثم الذهاب إلى المنزل. في أيام العطلة، تطيب له مجالسة زملاء في مقهى أو مشاهدة أحد الأفلام. لم يكن أحمد يُطلع زياد على شؤونه الخاصة لعلمه الأكيد أنه ينقل كل شيء حرفياً إلى والده. كان أحمد فتى الأحلام لغالبية بنات الجامعة. فهو طويل، بشرته حنطية، عيناه تشيان بذكاء خارق.

وقد درج في الإجازة الصيفية على أن يسافر ووالديه وأخته سارة إلى بلد مختلف، فالسيّد عادل كان يرغب في أن يرى وأسرته العالم كله. وفي خاتمة الرحلة تكون سوريا آخر محطة، كي تزور الزوجة عائلتها. هناك تعرّف أحمد إلى نوّارة، إحدى قريبات زوجة أبيه. وكانت أجمل فتاة رآها في حياته. فبدأت بينهما قصّة حب استمرت عاماً، وتكللت بالزواج، وبات أحمد يحسد نفسه على النعيم الذي يعيش تحت ظلاله، زوجة جميلة

تحلو الحياة معها، وعائلة مُحبّة متفهّمة، ومركز مرموق في انتظاره حتى يترجم أحلامه مشاريع واقعية. وأقام قرب منزل أبيه في منزل جديد بُني خصيصاً له، وهكذا يظلّ شمل العائلة مجتمعاً وفق وصيّة الراحل الكبير السيّد حمد. لم يكن ذلك المنزل هو الشيء الجديد الوحيد في المكان، بل هنالك أيضاً الشلال الحجري الضخم والمتصل ببركة للسباحة واسعة أنشئَت محلّ البحيرة. وبهذا المشهد أكمل عادل الناقص تيمّناً بأسلوب والده.

أما زياد فتزوّج على طريقة زواج والده. ورزق صبيّاً أطلق عليه اسم جاسر، لكنه تُوفّي في حادث سير قبل أن ينعم برؤية ابنه يكبر ويشبّ تحت جناحَي أبوّته. لم تحتمل الجدّة هول الفاجعة فطلبت الطلاق من السيّد تركي وغادرت المنزل.

وكان طبيعياً أن تقيم زوجة الفقيد وابنها جاسر في منزل مستقل تقيّداً بالعادات والتقاليد.

وفي غمرة التقلّبات العائلية، أنجزت سارة الدراسة الجامعية، ثم تزوّجت بموظّف ذي منصب رفيع في وزارة الخارجية، وأنجبت بسّام.

وقد أنعم اللّه على أخيها غير الشقيق أحمد طفلتين توأمين سمّاهما ليال ومنال.

(٥)

صباح كلّ يوم جمعة كان أشبه بأيام العيد، إذ يجتمع الأولاد والأحفاد في المنزل الرحب، ليلعبوا ويسبحوا ويلهوا في جو من السعادة والمرح. كان ذلك تقليداً أقامه الجدّ الأكبر وحافظت عليه أجيال العائلة. لم يتغيّب الشقيقان عادل وتركي يوماً عن هذا التجمّع الأسبوعي إلا نادراً. كانت سيّدات المنزل يعتنين بالطعام والبرنامج الترفيهي للأطفال، والخدم والطهاة والعمال الآخرون يتلقّون الأوامر ويطبّقون التعليمات. أما رجال العائلة فكانوا معنيين بالتأكد أن جميع المدعوين سيحضرون. وكانت السيّدة نوّارة زوجة أحمد مبدعة دوماً في تهيئة طفلتيها لهذه المناسبة، فتدرّبهما على عزف البيانو، وعلى أداء أغنية معبّرة غالباً هي للسيدة فيروز. ويروح الصغار يتبارون متحمّسين هاتفين عندما يفوز أحدهم في مسابقة السباحة أو في ركوب الخيل.

وحده جاسر كان لا يشاركهم في اللعب، بل يبقى مع جدّه على الدوام.

لم يتفق جاسر كثيراً مع أولاد أعمامه. كان سليط اللسان، شرساً، طويل اليد، لا يتمتع بأي ميزة غير أنه يملك من الألعاب والصلاحيات ما لا يملكه أي طفل في مثل عمره. لذا أُعجب به الكثيرون ممَنْ هم أصغر منه سنّاً، إلا بسّام الذي كان يراه متعجرفاً متكبّراً، ويتفادى الاحتكاك به مفضّلاً قضاء معظم الوقت مع أولاد أنسبائه الآخرين، وخصوصاً منال التي هي أقربهم إليه.

كان بسّام ومنال منذ الصغر شديدَي الارتباط أحدهما بالآخر. وكانت السيّدتان نوّارة وسارة تتبادلان الدعابات عندما تريان الصغيرين منهمكين باللعب معاً، في الحديقة، فتقول نوّارة لسارة:

- هالشي ما بيصير. لازم تتقدّموا رسمي وتخطبوها.

تردّ سارة:

- لا يا حبيبتي، ولدي بكرا البنات بتركض وراه.

وتنتهي الدعابة بضحكة مشتركة. لكن الذي في داخل كل من بسّام ومنال كان أصدق من تلك الضحكة.

كانت ليال على عكس أختها، فمسألة الإعجاب بأحدهم لم تكن أهم ما يشغلها. فاللعب وتحدّي

الأطفال وركوب الخيل والسباحة محور اهتمامها. منذ الصغر تحلّت بشخصيّة قوية. لم تمشِ يوماً ناظرة إلى الأسفل حياءً، مثل بقية الأطفال. فدوماً كان رأسها مرفوعاً، تنظر إلى من يحادثها، تردّ على من لا يعجبها كلامه، من دون أن تتجاوز حدود الأدب. لذا كان السيّد أحمد يتباهى:

- بنتي ما ينخاف عليها لو إنحطّت بين مليون رجّال.

فليال تكبر منال بعشر دقائق وتفوقها حِدّة وجرأة، حتى شعرها المتموّج يترجم حماستها الدائمة واندفاعها الملحوظ، فهي الثائرة والمتقنة لكلّ ما تحبّ. وإذا لم يعجبها أمر ما فلا تنفّذه إلى أن تقتنع.

أما منال فكانت هادئة ذات ملامح ملائكية ونظرات بريئة، وكان شعرها الناعم يعكس رقّة طباعها. ومن فرط حيائها، كانت منال في معظم الأحيان، الحاضرة الغائبة، وليال المتحدثة والمجيبة عن نفسها وعن أختها.

وعُرف السيّد أحمد بأنه ليّن الطباع، مهذّب، حنون، يحترم نفسه والآخرين، وهو محل تقدير لدى عارفيه وأصدقائه. وكان ارتباطه بوالده ارتباط الروح بالجسد. فلم يخذله يوماً.

وكانت زوجته السيدة نوّارة فائقة الجمال، طولها

ينافس قوام عارضات الأزياء، شعرها أسود منسدل كشعر الحصان، عيناها عسليّتان تشبهان عيون النمور في حدّتها. وهي الحبّ الأول والأخير لأحمد، والمثال الأعلى لطفلتيها في الأناقة وحسن التصرّف. وعلى الرغم من وجود مربّية للفتاتين التوأمين هي حميدة، فضلاً عن خادمات للتنظيف وللشؤون المنزلية الأخرى، لم تسمح لأحد بأخذ مكانها أو القيام بأي دور يجب أن تقوم به سيّدة المنزل. فهي التي تطعمهما، وتصحبهما إلى المدرسة في أوّل أيام الدراسة. وهي التي تراجع معهما دروسهما. ورابع المستحيلات أن تُشاهد الطفلتان أي فيلم قبل أن تراه الأمّ أوّلاً حتى تتأكد أنّه خالٍ من مناظر مبتذلة أو من كلمات قد تخدش نقاء ابنتيها. وإنْ مَرِضت إحداهما كانت تلازمها إلى أن تتعافى. حتى إن ليال ومنال كانتا مقتنعتين تماماً بأنهما إذا وضعتا رأسيهما على حضنها، فستستريحان حتماً، أو إذا لمست يداها مكان الألم فسيزول من شدّة حبّها وحنانها.

كان دفؤها الأمومي الذي رافق ابنتيها، كالدرع التي تقيهما صقيع الطفولة وعواصف المجهول، لم يجعلها تقصّر في بثّ دفء أنوثتها في أيام زوجها ولياليه. فلم يحدث أن استقبلت السيّد أحمد إلا كانت في منتهى الأناقة، فيبدو الاثنان في تلك اللحظة، كأنهما

في عزّ شهر العسل. فهي دوماً مبتسمة، متفائلة. لا يعكر صفوها ويقلقها إلاّ شيء واحد، هو الشلال. فكلّما سمعت خرير مياهه أو مرّت بالقرب منه، أو نظرت إليه، انفطر قلبها من البكاء الصامت. وكانت تبرر ذلك بقولها:

- أنا ما بحبّ هالشلال ولا بطيقه. اللّه يكفينا شرّه.

لم يعرف أحد قط تفسيراً لذلك!

كان يوم عائلة أحمد يمرّ كالآتي: تستيقظ الخادمات أوّلاً، ينظفّن غرفة المعيشة الكائنة بجوار جناح السيّد أحمد وزوجته، والتي يتناولان فيها طعام الفطور، طوال أيام الأسبوع ما عدا الجمعة، اليوم الذي تلتقي فيه العائلة كلها في الحديقة. ثم تستيقظ السيّدة نوّارة للتأكد أن كل شيء يسير على ما يرام، وتوقظ زوجها بقبلة على جبينه، والوردة بيدها. وفيما هو يهمّ بالدخول إلى الحمّام، توقظ هي الفتاتين لتذهبا إلى المدرسة، وتساعدهما حميدة في ارتداء المريول، وتوصلهما إلى غرفة المعيشة.

لم تسمح نوّارة للمربّية أو للخادمات بالمساعدة في إعداد الفطور، فقد كانت حريصة على أداء دورها كاملاً مع أفراد أسرتها. ولدى الانتهاء من تناول الفطور، وذهاب كل منهن في طريقه، تبدأ هي بمراجعة قائمة الطعام للتأكد أنه صحّي. وبعد أن تتفقّد نظافة المنزل،

تستحمّ، وتجلس في كرسيها المفضل وتبدأ بالقراءة. كانت تقرأ في علم النفس وتربية الأطفال والغذاء الصحّي. ولا تتخلّى عن الكتاب إلا حين تعود ليال ومنال من المدرسة، لتجداها في انتظارهما أمام المدخل فاتحة ذراعيها وهي تقول لهما همساً: «اشتقتلكن حبيباتي». وتقودهما إلى المائدة. بعد الانتهاء من الغداء، تقصّ أحياناً الطفلتان لأمّهما ما حدث معهما في المدرسة، وأحياناً أخرى تمدّهما الأمّ ببعض المعلومات التي قرأتها في أحد الكتب. ثم تذهب الصغيرتان إلى القيلولة التي لا تدوم أكثر من ساعة ونصف الساعة. في هذه الأثناء، يحلّ موعد قهوة المغرب والزيارات النسائية، فإمّا تستقبل السيّدة نوّارة إحدى صديقاتها أو تلبّي هي دعوة إحداهن. وعندما تستيقظ الطفلتان تسترجع معهما واجباتهما المدرسية بعد أن تأكلا شيئاً من الفاكهة. وفي الساعة السابعة، يصل الزوج برفقة والده الذي يتناول الطعام معه في أحيان كثيرة، ثم يعود إلى عائلته، وفي أحيان أخرى تنضم السيّدة نوّارة إليهما، ثم تعود وزوجها إلى المنزل حيث تكون ليال ومنال قد أنهتا المذاكرة، وذهبتا إلى الحديقة للعب مع بقية الأطفال. وفي الساعة الثامنة تعودان إلى المنزل، وتجلسان مع والدهما ووالدتهما قرابة نصف ساعة ثم تغتسلان وتمضيان إلى غرفة النوم.

ذات يوم، اتصلت والدة جاسر بالسيّدة نوّارة وقالت إنها في الطريق إليها، لأمرّ مهمّ. عندما وصلت كانت منهارة تعبة:

- الحقيني يا أمّ ليال، العم تركي جاني البيت يخانقني، وقال لي إنه بيحرمني من جاسر أكثر ما هو حارمني منه، وهو معاي.

- ليه شو صار؟

- أنا متقدم لي عريس. وبصراحة ماني لاقية فايدة من جلستي مع جاسر. العم تركي يتدخّل في كل شي، حتى في اللي بيني وبين ولدي، وحرمته اللي المفروض أنها توقف معي في عالم ثاني، فقلت لنفسي ليه ما أتزوّج. لكن أنه يحرمني منه وما عاد أشوفه، هذا شي ما أقدر عليه.

- هدّي بالك. إن شاء اللّه خير، يمكن زعلان لأنك بدّك تتزوجي غير زياد.

- لا واللّه أنا أعرفه زين، هو كل أمله أنه يخلص مني. أنا متأكدة أنه يبي يكرّه جاسر فيني عشان يصير مرتبط فيه لحاله.

- مو معقول. أكيد هيدا كله لحظة غضب وبتروح لحالها، ليه ما بتحكي مع العم عادل وتخليه هو يلّي يحكي مع العم تركي؟

اقتنعت أم جاسر بما قالته نوّارة وانتظرت حتى عاد السيّد عادل، وروت له ما حدث. ووعدها بأنه سيفعل أقصى ما يستطيع، فهاتف أخاه ودعاه إلى العشاء وفاتحه في الموضوع. لكن الردّ جاء أقسى من المتوقّع:

- ما حتشوف جاسر لكن لو هو اللي يبي يشوفها، ذاك الوقت يصير خير.

ونادى السيّدُ تركي جاسر، وقال له على مرأى من الجميع:

- أمّك بتتزوّج وتخليك ولو تبي تروح معها روح، بس أنا بشيل يدي منك. ولو تبي تقعد معاي، مافي شيء في الدنيا بينقص عليك.

وكان الردّ الطبيعي لجاسر:

- أنا ماني برايح محلّ، أنا معك يا بوي. وهي اللّه معها.

لقد غرس تركي في جاسر كل الحقد الذي في داخله، وأقنعه بأن والدته استغنت عنه ورمته، وأنها لا تريده لأنّها فضّلت الزواج، وهو في العاشرة من العمر.

(٦)

لم تكن منال وليال كأيّ توأمين. فإحساس إحداهما بالأخرى تعدّى حدود المعقول. ففي غرفة النوم، أصرّت الأمّ على أن يكون لكل منهما فراش منفصل. لكن هذه الرغبة لم تتحقّق. إذ كانت تستيقظ كلّ يوم فتجدهما في سرير واحد.

كان الجو العام في كلا القصرين سعيداً إلى حدّ ما، فمنزل عادل كان الأكثر اكتظاظاً بالأولاد. أما منزل تركي فلا يقطنه إلا هو وزوجته وحفيدهما وعدد من الخدم.

كان الأطفال يلهون دوماً في الحديقة. لكنهم لم يحبّوا جاسر كثيراً إذ كان لا يختلف عن السيّد تركي في علو صوته وعصبيّته وقلّة احترامه للآخرين صغاراً كانوا أو كباراً، حتى إنه كان يتلذّذ بمضايقة الأطفال وضربهم. وحين انهالت شكاوى الأمّهات على السيّد عادل، مُطالبات بوقف جاسر عند حدّه، اقترح على أخيه أن

يعرض جاسر على طبيب نفسي خاص بالأطفال. ردّ تركي:

- وش تقول يا خوي؟ اذكر اللّه، ولدي عقله يوزن بلد، هو بس طبعه شديد وينفعل لما يلعب مع الصغار، لا تشغل بالك فيه.

كأنّه يقول له بمعنى آخر:

- لا تتدخّل في ما لا يعنيك.

برغم مرور نحو عامين، لم يتغيّر سلوك جاسر مع أطفال العائلة، فازداد كرههم له، بعدما أضحى أكثر عنفاً وتهوّراً. في ذلك الحين فكّر السيّد تركي ملياً في مسألة عرضه على طبيب مختص، وبخاصة بعد وقوع بضعة حوادث متتالية، أبرزها ضرب أكثر من طفل وكسر أنف أحدهم. وهذا ما حصل. صحب جاسر بدون علم أحد إلى الطبيب الذي استنتج عقب المعاينة، أن الفتى يعاني ميولاً عدوانية شديدة لعدم إحساسه بالأمان، والسبب أنه فقد والده وهو صغير، وكبر يتيماً، ووالدته تزوّجت وفضّلت رجلاً آخر عليه.

وذات يوم جمعة، كان الأطفال كالعادة يمرحون ويتسابقون، وتتردد أصداء صخبهم البريء في رحاب المكان. فجأة ركضت ليال لتسأل والدتها:

- ماما وين منال ماني لاقيتها. كنا نلعب وبعدين اختفت.

ردّت الأمّ في ذعر:

- كنتوا بتلعبوا حدّ الشلال؟

فأجابت ليال وصوتها يرتجف خوفاً:

- ما أدري. . . ما أدري.

نهضت الأمّ مسرعةً تبحث عن ابنتها بجوار الشلال ودموعها منهمرة. وهبّ الجميع للبحث عن الملاك الصغير، إلا جاسر الذي رأته ليال ينسحب نحو منزله على رؤوس أصابعه، كأنّه أراد ألا يلحظه أحد. لم تعره اهتماماً، وتابعت البحث عن أختها حتى قادتها قدماها إلى غرفة والديها لتسمع أنيناً وبكاءً مصدرهما خزانة الملابس الخاصة بأبيها. ففتحتها لتجد منال مختبئة مرتعبة، فسألتها:

- وش فيك، ليش تبكين؟

غمرت منال أختها وألقت رأسها على كتفها كأنّها تحتمي بين ذراعيها، وقالت:

- ما تخلّيني. احضنيني بقوّة. أنا خايفة.

- خايفة من أيش؟ عمرك ما تخافي وأنا جنبك. علميني وش صار؟

- جاسر قليل أدب ما يستحي. كنا نلعب وبعدها قال لي تعالي بوريك شي. ولما صرنا لحالنا قال لي أنتي لي أنا، وأنه يحبّني. ولما قلت له يبعد ويخلّيني أروح وأني ما أحبّه، بدا يشدّ شعري ويضربني، ويقول لي أنا رجّال الحين. وما أدري كان شكله غريب. وكان كلّه يصب عرق. الحمد للّه إني قدرت أهرب منه وركضت على هنا، المكان الوحيد اللي ما حيقدر يدخله هو غرفة نوم أبوي وأمّي.

طمأنتها ليال وأخذتها حتى تغسل وجهها، وهاتفت والديها كي يطمئنا. لم تنتظر أن تحكي ما حدث لوالدها بل ذهبت إلى منزل السيّد تركي، ودخلت عليه غير مبالية بردّ فعله وغطرسته:

- عم تركي أنت تحبّنا؟

بدا بارداً وهو يسمع السؤال، وجوابه يفوقه برودةً:

- جايتني الحين عشان تسأليني أحبّكم. إيه أحّبكم. في سؤال ثاني؟

- وتقبل إن أحد يغلط على بنات أخوك؟

- هذا اللي ناقص بعد.

- وإذا عرفت بتوقف معنا؟

- أكيد طبعاً.

- عشان كذا أنا جيتك لأني أعرف انك ما ترضي الغلط حتى ما رحت لجدّي أو أبوي.

- أحكي وش صار؟

- جاسر ضرب منال، وقلّ لها حكي عيب يقوله أحد من عائلة حمد. ما بالك وأنت اللي مربّيه يا عمّي. المفروض يكون هو اللي يعلّمنا الأدب.

بذكاء مبطّن، قدّمت ليال إليه الإساءة والتوبيخ على طبق من الكلام المعسول. وقد استوعب تركي ما جرى، وقرّر أن يتّخذ موقفاً قويّاً عندما يقابل شقيقه عادل ووالد منال، وهكذا كان. فقد أقر بأن جاسر يُعالج لدى طبيب نفسي، وهو يعاني بعض الاضطرابات النفسية لفقدانه والده ووالدته. وسيتعافى بعد خضوعه لبضع جلسات. ولم يكتف بذلك التوضيح، بل أجبر جاسر على الاعتذار إلى منال ووالدتها. لكن توضيح السيّد تركي لم يتضمّن الحقيقة كاملة. فجاسر كان يعاني مشكلات نفسيّة معقّدة تستدعي جولات علاج طويلة لا جلسات معدودة.

في ذلك الحين، كان جاسر قد أتمّ الثالثة عشرة والفتاتان التوأمان الأحد عشر عاماً.

مرّت الأيام، وبدأ جاسر يبدي اهتمامه الشديد بمنال، فكان يلاحقها إلى كل مكان تذهب وأختها إليه، وصولاً إلى مكانهما السرّيّ في إحدى باكات الخيل غير

المستعملة في الإسطبل، وهي الملاذ الذي تهربان إليه كل يوم تقريباً، لتكتبا في دفتر صغير تفاصيل يوميّاتهما.

كان جاسر يظهر كالجنّي الذي لا تردعه حواجز. لم تكن منال تبادله المشاعر نفسها التي يكنّها لها. كانت تتحدث كثيراً عن ابن عمّتها بسّام. وكانت الدنيا لا تتسع لفرحها عندما تعرف أنها سترافق أهلها لزيارة العمّة وابنها، أو أن الأخيرَيْن سيزورانهم. وكانت تبذل قصارى جهدها لتظهر في أحلى حالاتها لدى مجيء بسّام.

لم يعجب جاسر ما يحدث بين منال وبسّام. فكان يتعمّد على مسمع هذا الأخير، التباهي بما يملك، وبأنه يستطيع أن يحصل على أيّ شيء يريده من جدّه. لم تكترث الفتاتان له، إذ لم تكن عينا منال تفارقان بسّام. أما ليال فكانت منهمكة بالمسابقات الرياضية والخيل. وكانت مولعة بالكمبيوتر ولعاً كاد يوصل والديها إلى حدّ الجنون. فهي لا تستعمل هذا الجهاز مثلما يستعمله أيّ شخص، بل تفكّكه وتعيد تركيبه. فشلت مرّات عدّة لدى إعادة جمع قطعه، لكنّ عشقها للتحدّي، جعلها تثابر إلى أن أتقنت التركيب جيّداً.

حلّ موسم الصيف، ونجح الأطفال في المدارس، إلا جاسر الذي رسب في مادتين. لم يعاقبه جدّه بل راح

يقنعه ويقنع نفسه بأن العيب في المعلّمين، لأنهم فشلوا في توصيل المعلومات إلى عقله، فلم يستوعب، وجاء الرسوب نتيجة منطقية. ليس هذا فحسب بل حاول الجدّ رفع معنوياته بهديّة ثمينة لم يقدّمها إليه إلاّ في الحفلة التي تقام في نهاية كل عام دراسي لأطفال العائلة، توزّع فيها الهدايا مكافأةً لمن نجح. وكل هديّة على قدر درجات شهادة صاحبها. وفي المناسبة المنتظرة، التي أضحت تقليداً سنوياً، وُزّعت الهدايا على المستحقّين والمستحقّات. لكن أحداً لم يذكر اسم جاسر. وفي اللحظات الأخيرة، كان عدّاد التوتر لدى جاسر بلغ الذروة، فقرر التنفيس عن نفسه. ذهب إلى حيث يجلس البستانيّ عبده، وهو كهل نشأ وترعرع في منزل العائلة وأعاله المرحوم السيّد حمد حتى كبر فزوّجه، ورُزق ولدين. انهال جاسر على الثلاثة بالسباب والضرب زاعماً أن أحدهم سخر منه لأنه راسب. غضب عبده وأخذ ولديه وعاد إلى منزله محاولاً تهدئتهما وهو على يقين أنه لن يستطيع أن يشكو جاسر إلى جدّه. فقد سبق أن حدث موقف مشابه وكان ردّ تركي على شكوى عبده:

- اسمع، أنا ولدي ما يغلط ولا تفكّر تحطّ راس أولادك براسه. الظاهر أن أبوي كان غلطان أنه خلاك في البيت. ولو مو عاجبك الباب يفوّت جمل.

وقبل انتهاء الحفلة، سمع الأطفال صوت بوق سيّارة، فإذا بتركي يقودها، وهي «بورش»، وقال بصوت عالٍ:

- جاسر، هذي هديّتك. مو لشي غير انك أذكى وأقوى ولد من عيال عيلة حمد.

عندئذ، أحسّ جاسر بأنه ملك متوّج. فهو لم يتجاوز الرابعة عشرة وبات يملك هذه السيارة الفخمة. عندما ذهب ليراها نظر إلى منال كأنه يعرض عليها ما لا تستطيع رفضه، وقال:

- مين قدّك. أنتي الوحيدة اللي ممكن أخلّيها تركب معي السيارة.

فردّت بلامبالاة:

- لا شكراً.

اغتنم بسّام تلك اللحظات، وقدّم إليها سلسالاً منقوشة عليه آية «الكرسي» وقلّدها إيّاه:

- هذا عشان ربّي يحميك ويبعد عنك أيّ شرّ.

لمعت عينا منال وطغى الخجل على وجنتيها فاحمرّتا. نظرت إليه وردّت برقّة:

- ويخلّيك.

كان هذا أول اعتراف بحبّهما يترجم إلى كلمات مسموعة ظلّت أشهراً صامتة في قلبَيْهما.

ركضت منال لتري ليال هديّة بسّام، وجاسر يراقبها كالذئب. وقبل أن تبدأ بالكلام مع أختها، فاجأهما جاسر:

- على فكرة، هذا السلسال ما هو مصنوع لك لحالك. تراه ينباع في المحلات. لكن هديّتي أنا ما لحّقت أجيبها اليوم لأنها تتصنّع لك مخصوص، حتى الألماس اللي فيها مو سهل ينجاب.

فأجابته على الفور:

- شكراً يا جاسر. لكن الهديّة مو بثمنها، قيمتها عندي بمتى وكيف اتقدمت. على كل حال كأنك جبتها يا ولد عمي.

لم يرقْ جاسر ما حدث فأيقن أن منال لن يغريها الألماس والمال.

جاء وقت السفر إلى منزل العائلة في مونت كارلو بجنوب فرنسا. كالعادة قضى بسّام ومنال أجمل الأوقات. أما ليال فتعلّمت الغوص المائي الذي كان هدفها في تلك الرحلة. فهي من ذلك النوع الذي ما إن يضع لنفسه هدفاً حتى يحوّله واقعاً.

انتهت الإجازة وعاد الجميع إلى الشرقية استعداداً لدخول المدارس. لكن السنة الدراسية لم تبدأ هادئة، بل

بخبر هزّ كيان منال وكاد يوصلها إلى حدّ الاكتئاب. فوالد بسّام يعمل في السلك الدبلوماسي وقد رُقّي إلى رتبة قنصل المملكة في إحدى الدول الأوروبية، وسيتسلّم مهمّاته بعد ستة أشهر. هذا يعني أنه سيغادر وعائلته البلاد.

بكت منال كثيراً. حاولت أختها إقناعها بأن بسّام سيأتي في الإجازات، وقالت معزّيةً:

- وش فيك أنتي؟ أجل لو ما كان في نت وجوّالات وش كان صار فيك؟ متى ما وحشك تقدرين تسمعين صوته وتشوفيه. وإن كانت الرومانسية عندك إنك تكتبي له إحساسك، يا أختي أرسلي له إيميل كل دقيقة... طفشتيني تراك.

(٧)

اجتمعت العائلة كما جرت العادة ذات يوم جمعة صباحاً. والتقى معظم شبابها، بينهم منال وليال وبسّام وجاسر، وراحوا يتبادلون الأحاديث. قال بسّام لليال:

- أوعديني انك بتنتبهي على منّول لين ما ارجع وأنا أنتبه عليها.

- لا باللّه خذها معك من الحين، أنا ما عندي وقت انتبه على أحد.

وإذا بمنال تتمتم:

- يا ليت.

فقال بسّام:

- ممكن في حالة وحده، إني أتزوجها وأخذها معي.

وعلّقت ليال:

- وليه لا، روح قول لأبوي ترى هو يحبّك ومو برافض لك طلب.

دار هذا الحديث في جو لم يخلُ من المرح والدعابة. لكن جاسر أخذه على محمل الجدّ، فردّ باندفاع ممزوج بشيء من الغضب:

- ما حد بيوافق يزوّجكم!! أنتم أطفال! بلا حكي فاضي.

أجابته ليال متعمّدةً إغاظته:

- مين قال كذا. أبوك وأبوي أتزوجوا في نفس السن ويمكن أصغر.

فردّ بلهجة هجومية وصوت مرتفع:

- وأنتي يا منال ليه ما تردّي، كيف بتكملين دراستك؟ وأنتي يا شاطرة تقدرين تبعدين عن أختك؟ ولاّ هو بس حكي وخلاص.

ضحك الجميع على ردّ فعل جاسر الذي بدا متذمّراً حانقاً، ولوّح بيده مغادراً المكان... تطارده أصداء ضحكاتهم بوخز يؤلم صدره ويقطع أنفاسه وهو يتوعّدهم بالانتقام.

(٨)

بدأت أيام الدراسة. وكانت ملامح الأنوثة تظهر واضحة على منال وليال، قامة فارعة، شعر طويل منسدل، عينان سوداوان تشيان بالذكاء والرصانة، مشية واثقة على شيء من الإغواء اللطيف... وكان كلّ من لا يعرفهما يخطئ في تخمين سنّهما، فيعطيهما عمراً أكبر من عمرهما الحقيقي.

كانت منال تحسب كلّ يوم يمرّ دقيقةً دقيقةً، وتحاول أن تقضي بضع ساعات منه مع حبيبها بسّام، خصوصاً أنه سيسافر قريباً.

قبل سفره بأسبوعين، كان موعد التجمّع، وصودف أن الجو كان غائماً كئيباً. لم تغمض عينا ليال ولو لحظة، كأن قلبها قد سجن في ظلمة بين ضلوعها. كانت تعانق منال طوال الليل حتى إن الأخيرة أفاقت عليها مراراً كي تطمئن إلى أن أختها لا تزال بجوارها. أتى الصباح، وكانت ليال في قرارة نفسها تتوسّل إلى

أشعة الشمس ألا تسطع كي تظل شقيقتها قربها.
استيقظت منال فإذا بليال واعية تنظر إليها وتملّس خصلات شعرها وتتفحّصها، كما لو أنها تدرس كلّ جزء من ملامحها. فقالت:

- خير ليال. وش فيك؟

- ما أدري بس أبي أناظرك وأحضنك.

- ليه لهالدرجة وحشتك، ولا يا خوفي تكونين قررتي تهربين وما عاد تشوفيني.

لم تتمالك ليال فبكت:

- لا، اللّه لا يحرمني منك ولا يفرّقنا دنيا ولا آخرة.

أوقفتها منال عن الكلام واضعة كفّها على فمها:

- أعوذ باللّه استغفري ربّك، اللّه يعطيك العمر والسعادة أكثر مني مليون مرة. ليال أوعديني.

- أوعدك بأيش؟

- أبيك دايم قوية، وما تخافين إلاّ من ربّك ولا تسمحي لأحد يستهين فيك وفي ذكائك. واحرصي على قلبك الأبيض ولا تخلّي الأيام تغيّره.

فأقسمت أختها على التزام الوعد.

(٩)

تأنّقت منال وبدت في منتهى الجمال حتى إن والديها نظرا إليها، وقالا:

- ما شاء اللّه تبارك اللّه طالعة قمر اليوم.

وهي همست لليال:

- يا ربّ بسّام يشوفني مثلهم.

فردّت:

- لا واللّه أحلى من القمر. بسم اللّه عليك.

نزلتا إلى الحديقة. لم يختلف اثنان في ذلك اليوم على حُسن منال. وعندما رآها بسّام لم يسعفه الكلام للتعبير عن إعجابه بها، فقَّبل يدها وأفصح لها:

- ما كنت أعرف أن الملايكة تمشي على الأرض.

فعلاً كان هذا هو الوصف الصائب.

كان جاسر هو أيضاً يريد أن يعبّر عمّا تراه عيناه من جمال، لكنّ عينَيْ منال لم تفارقا بسّام.

خلال الغداء، نادت السيّدة نوّارة ابنتيها. وإذا بالجدّ عادل يقول لحفيدته منالَ:

- تعالي جنبي. أنتي اليوم ملكة. أنا بأكلك بيدي.

لبّت منال رغبته، وكانت تتصبّب عرقاً من الحياء. فهي في الرابعة عشرة من العمر ويطعمها جدّها كأنها طفلة في الرابعة.

وفيما الجميع يأكلون ويتبادلون الأحاديث القصيرة والتعليقات العابرة، وجّه زوج السيّدة سارة الكلام إلى السيّد عادل:

- وش ذا الدلع كله يا عمّي؟ ترى بديت أغار منها، وليه ما تقعد بسّام الجهة الثانية وتأكلهم هم الاثنين؟

ضحك الجدّ وقال:

- ما أعتقد بسّام غاير. أحب ما على قلبه أني أدلع منول، مو صح يا بسّام؟

بدا ما جرى كأنه موافقة جماعية على حبّ منال وبسّام. عندئذ أيقن جاسر أن منال ضاعت من يده، فانسحب وراحت غيوم الثأر تتلبّد في صدره.

انضمّ السيّد أحمد إلى المجلس متأخّراً لانهماكه بإنهاء صفقة مهمّة. وما إن وصل حتى لاحظ اختفاء جاسر، فسأل عنه فأجابه السيّد تركي بأنه مريض منذ

الصباح، وقد ذهب ليأخذ قسطاً من الراحة. لكن جاسر كان كالصقر يتابع فريسته من نافذة غرفته. وعندما حان موعد المغادرة همّت السيّدة سارة بالدخول إلى المنزل لتلقي التحيّة على والدها. في هذه الأثناء، تمنّت منال على ليال أن تذهب إلى المنزل، وهي سترافق بسّام إلى سيارته ثم تلحق بها. رفضت ليال، لكنها بعد إلحاح شقيقتها، خضعت لرغبتها وغادرت وهي تخطو خطوات متألمة كأنها تسير على الشوك. تمشي قليلاً وتقف. ظلّ يدور في رأسها أن هناك شيئاً نسيته، وأن عليها العودة إلى حيث أختها، لكنها أحسّت أنها تختلق الأعذار، فذهبت إلى المنزل وبقيت جالسة قرب النافذة منتظرة عودتها، وقلبها يدقّ كأنّها ركضت عشرة كيلومترات خلال عشر ثوان.

في الجانب الآخر، كانت منال تودّع بسّام:

- أبي أطلب منك طلب.

- سمّي.

- أحلف أنك بتوقف دايم جنب ليال وبتعقّلها إذا انجنت كثير.

أنت عارفها طيبة لكن متسرعة وعصبيّة.

- وليه، أنتي غسلتي يدك منها خلاص؟

- لا واللّه صدق أحلف ريّحني يا بسّام.

فحلف وقبّل رأسها، وقال الكلمة التي ذهبت بها إلى البعيد:

- أحبّك يا منول.

لم تردّ من شدّة الحياء ووقع المفاجأة، لكنّ عينيها كانتا تصرخان أنها هي أيضاً متيّمة به.

في طريق العودة، أحسّت أن قلبها يرقص من شدّة الفرح. كان منظر الشلال والأنوار المضيئة أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع. وقفت تتأمّل المشهد البديع. لم تشعر أن أحداً واقف خلفها يتأمّل جسدها، كأنه يلتهمه بعينيه، أو يهيّئ نفسه للانقضاض عليه. وإذا بصوت خافت يهمس «منال». كانت متأكّدة أن هذا الصوت صوت أختها، فأحبّت أن تلعب. فهرولت إلى الجهة الأخرى من الشلال، منادية «ليال». وفوجئت بجاسر يقف قبالتها وعيناه تقدحان شهوة حارقة، وقال بنبرة هي مزيج من الودّ المفتعل والمكر الخفي:

- مانتي لحد في هالدنيا غيري. ولو فكرتي تكونين لغيري فموتك أهون.

نظرت منال إليه وهي ترتعد خوفاً:

- بسم اللّه، أنت وش جابك هنا؟ أيش تبي مني؟ خلّيني أروح البيت واتعوّذ من إبليس.

- إبليس هو اللي يتعوّذ مني الحين، ما حتكونين لبسّام. فيكون بكيفك أحسن ما يكون غصب عنك.

ما إن سمعت التهديد المباشر حتى رفعت يدها وصفعته:

- غصب عني! أنت مجنون... مجنون وخّر عن طريقي.

لم يرحمها جاسر، فحاول معانقتها وتقبيلها مدفوعاً بالرغبة التي كانت تموج في عينيه الحمراوين وجسده. لم تستطع الإفلات من بين يديه القويّتين، لكنها لم ترضخ، واستمرت في الممانعة. وعندما عصيت عليه، طرحها أرضاً، فأحست عندئذ، أن صوتها احتبس في صدرها، وبدأت حُبيبات عرقها الغزير تغسل جسدها الذي أُرغم على الاستسلام. شعرت أن مطرقة تدقّ على بطنها، وأن سكيناً حاداً يشقّ أحشاءها. وما هي إلا لحظات حتى ساد المشهد لون أحمر اختلط بمياه الشلال.

كان كل شيء يتحرك تحركاً قويّاً، والظلام يجري في عينَيها، فتتعذّر عليها الرؤية، والشلال يتدفّق غامراً يدها اليسرى المتدلية إلى مجراه، كأنه يحاول جذبها إليه لاستكمال مهمّة ذلك الوغد. تجمّد جسدها الضعيف في مكانه، وظلّت عيناها معلقتين بالسماء، ولبث الهواء

يداعب فستانها الأبيض الممزّق، ووجنتيها الشاحبتين إلى أن استعادت الوعي متأوّهة بصوت خافت:

- وخّر عني... وخّر عني يا حيوان.

خاف الجبان وفرّ هارباً إلى منزله وهو يحاول إنزال ثوبه، فاصطدم بجدّه الذي صرخ به:

- من سوّى كذا بثوبك؟ وش ذا الدم؟ أنت وش سوّيت؟

- سوّيت اللي أنت قلت لي عليه.

- وش اللي قلت لك عليه؟

- أخذت من منال اللي أبيه.

قال عبارته الأخيرة، وهو يشير نحو الشلال مستكملاً لملمة ثوبه ومعاودة الفرار. لحق به الجدّ وأمسك بذراعيه وأخذ يهزّه كي يفيق، وأمره:

- أطلع غرفتك. أنت نايم من أكثر من ساعتين. فهمت. وأتحمّم ولا تخلّي أحد من الشغّالين يشوفك. وغيّر ثوبك ولا تخليهم يغسلوه.

ركض تركي صوب الشلال وهو يمشّط المنطقة بعينيه كي يتأكّد أن المكان خال وآمن. رأى منال ملقاة أرضاً والدماء تنساب حولها، وسمع تمتمتها: «جاسر... جاسر».

ثم بدأ صوتها يعلو شيئاً فشيئاً. عندما دنا منها، لفتته حركة مريبة في الحديقة، أو هكذا خُيّل إليه، فحدّق جيّداً فلم يرَ شيئاً. وفيما يضع يده على فمها ويردّد: «اسكتي ما هو بجاسر»، عاود استطلاع المكان بعينين حذرتين جاحظتين لعلّ أحداً رأى أو قد يرى وقائع الاعتداء الخسيس. كان متيقّظاً، ومضطرباً، كما لو أنه يضمر أمراً، أو رغبة، أو شرّاً. وعندما سكتت تماماً، انتبه إلى أنها لم تعد تتحرّك، فأخذ يهزّها من كتفيها، وينادي:

- منال... منال. ردّي عليّ.

ثم أفلتها، فهوت.

استطلع المكان مجدّداً ثم أسرع إلى البيت، كأنه لم يرَ شيئاً. لم يعرف شيئاً. لم يفعل شيئاً.

هذا كلّه حدث، وليال تنتظر منذ أكثر من ساعة، عودة منال، والقلق يساورها، وألم شديد يجتاح بطنها. كانت تتطلّع من النافذة نحو الحديقة عندما جاءت أمّها، وسألتها:

- حبيبتي وينها منال؟

فاستدارت والدموع على خديها:

- ما أدري. راحت توصل بسّام من ساعة ولسه ما رجعت.

انقبض قلب الأمّ وهرولت إلى الخارج تنادي زوجها:

- إلحق منال يا أحمد، إلحق منال.

ركض الأب وراءها:

- وش فيها منال؟

لكنها لم تردّ، وأخذت تجري مُسرعة ويلحق بها أحمد وليال، حتى وصلت إلى حيث ابنتها مسجاة والدماء على ساقيها، فجلست إلى جوارها واحتضنتها:

- منال... منال. ردّي عليّ. مين اللي عمل فيك هيك؟

وأخذت تبكي وتولول وتسأل زوجها:

- ليش ما عم تردّ عليّ؟

كان أحمد قد أمسك بيد منال، فإذا هي باردة ثم جسّ رقبتها حتى يتحسّس النبض. حين تأكّد له أنها فارقت الحياة، غمر ابنته وزوجته معاً. لم تصدّق ليال ما يجري. ظنّت أنها في كابوس. فكيف ستمضي بقية العمر وحيدة، بعد غياب نصف روحها، وشقيقتها التوأم؟ راحت تتحسس أختها، وتصرخ:

- منال، منال ردّي عليّ. أنا ليال.

نظرت أمّها إليها وقالت:

- اسكتي. منال ما حتردّ علينا بقى. منال ماتت.

مالت الأُخت المفجوعة إلى أبيها، وقالت:

- قول لي إنه مو صحيح. قول لي إنها تعبانة وبتطيب.

لم ينطق الأب بكلمة. لقد أفقدته الصدمة القدرة على الكلام.

علا النحيب وملأ أرجاء الحديقة وساد الحزن والدموع في مشهد جنائزي مفجع.

(١٠)

خلّف رحيل منال جروحاً في أيام العائلة كلّها، وأسرعها ظهوراً وفاة زوجة عادل التي قضت فور تلقيها خبر الفاجعة. كان تركي متيقّناً أن أحداً لم يرَ ما حصل في تلك الليلة المشؤومة. لكنّ عبده رأى كل التفاصيل. لم يتقصّد ذلك. المصادفة قادته إلى جوار الشلال، وذُهل مما كان يحصل، وعندما حاول أن يتوارى بين الأشجار تعثّر فصدر صوت؛ هو ذات الصوت الذي لفت انتباه تركي عندما كان قرب الضحية. لكنه لم يكتشف مصدره. وهذا من حسن حظّ عبده الذي ما إن هرب السيّد تركي، حتى جرى هو كالمجنون إلى منزله واحتضن ولديه خوفاً عليهما مما سيحلّ بهما إنْ هو أفصح عمّا رآه. رُعبُه من بطش تركي كان أقوى من عذاب ضميره، فآثر الصمت والتكتّم. لكنه عاهد نفسه على أن يكون ظلّ ليال وأن يحميها من كل أذى. ألزم نفسه بذلك كأنه يكفّر عن صمته، مع أن ضميره غير

راضٍ عن هذا القرار الصعب. فقد كان عذابه أشدّ من عذاب القاتل، لإيمانه بأن «الساكت عن الحقّ شيطان أخرس».

استُدعِي طبيب العائلة على عجل، فعاين الجثّة. انفرد عادل به وأمره أن يذكر في التقرير الطبّي أن الوفاة طبيعية نتيجة ارتطام رأس الفقيدة بأحد أحجار الشلال، وهو ما اتّفق مع رغبة الأب في أن تدفن ابنته بدون الخوض في التفاصيل. وكان يجيب كل من استفسر عن سبب الوفاة، بأن قدميها انزلقتا أثناء عودتها إلى المنزل فارتطم رأسها بالحجر وتوفّاها اللّه فوراً.

رفض السيّد أحمد أن يقرّ بما حدث حتى لنفسه، حرصاً على شرف العائلة، وخوفاً من الفضيحة. فألسنة الناس لا ترحم، فقد تختلق روايات وتلفّق أقاويل توصم بالشبهة عائلة حمد كلها. لذا رفض حتى أن يعرف هل توفّيت ابنته عذراء أم لا.

استغرقت ليال في غيبوبة نفسية، وانتابت الأمّ حالة من الصمت، كأنها حاضرة وغائبة في الوقت نفسه، مثلها مثل «الإنسان الآلي». لا تردّ على أحد ولا تنطق بكلمة. كانت تدخل يومياً مرتين إلى غرفة ليال فتطمئن إليها من حميدة والممرضة الملازمة لها. حتى أيام العزاء، كانت تتوسّط مجلس النساء مذهولة لا تدري ما يدور في

المكان، والدموع لم تفارق خديها، ولا المنديل يديها.
وفي نهاية اليوم تذهب إلى غرفتها بعد الاطمئنان على ابنتها. وعندما يحاول السيّد أحمد أن يواسيها، تكتفي برفع كفّيها ملوّحة له بالابتعاد عنها، وتقول:

- اللّه يسامحك، ما بردتلي ناري.

لم تعد تطيق رؤيته أو وجوده معها، فأصبحت تنام وحدها في غرفة مستقلة.

بعد مضي أسبوعين، بدأت ليال تستعيد وعيها، وتنظر إلى من حولها، والاحمرار يحيط بعينيها من فرط البكاء، متردّدة أن تطرح السؤال الذي جهدت طويلاً لتتجنّب مواجهة الجواب عنه. وعندما وقع نظرها على حميدة أشارت بيدها أن تقترب منها، وهمست في أذنها بصوت مخنوق كأنها خائفة أن تسمع حميدة السؤال، ومرتعبة أيضاً من الإجابة:

- أنا كنت أحلم صحّ؟ منال موجودة؟

طأطأت حميدة رأسها وهي تحاول أن تخفي انكسارها، وأجابت: «لا».

كتمت ليال فمها بالوسادة وراحت تبكي وتئن أنيناً مكبوتاً. لم تقاطعها حميدة بل تركتها تبكي ومنعت كل من يسعى إلى تهدئتها، لعل هذا ينفّس عمّا في داخلها.
بعد قليل، عاودت ليال السؤال:

- كيف! كيف صار؟

- اللي سمعته إن منال كانت مع بسّام يتمشّوا في الجنينة، ووصّلته للسيارة عند الباب الورّاني. وبيقولو وهي راجعة وقعت عند الشلال وراسها أتخبطت في الحجر.

عادت ليال إلى صمتها، وفي بالها عشرات الأسئلة التي لم تجد إجابة عن أيّ منها. ومن شدّة هول المصيبة، وعدم فهم ما حدث، ألقت اللوم على نفسها إذ لم تجد أحداً تلومه. تذكّرت أنها لم تقل لأختها: «أستودعك اللّه الذي لا تضيع ودائعه» قبل أن تتركها في الحديقة. وهذه أول مرّة تفترقان بدون أن تردّدا تلك العبارة. ظنّت أن هذا السبب هو وراء ما حصل. لكن عقلها لم يقبل بهذا الاستنتاج. كانت متأكّدة أن هنالك لغزاً ما، لا بدّ من أن تكتشفه ذات يوم. فالحقيقة يتأخّر ظهورها، لكنها في الأخير، ستظهر.

تكاتف الجميع محاولين بلسمة جروح عائلة أحمد، وأوّلهم والده الذي كان يومياً يتفقّد أحواله، ويقضي وقتاً طويلاً يتلو بصوت خفيض آيات من القرآن على زوجته، ثم يتّجه إلى غرفة ابنته ويفعل الأمر نفسه. كل ما كان يريده هو مؤازرتهم في هذه المحنة ومواساتهم.

ذات يوم، أفاقت ليال على صوت عمّتها سارّة التي

كانت تحاول أن توقظها، لكي تذهبا معاً إلى منزل السيّد عادل حيث كانت العائلة مجتمعة، من أجل أن ترى أباها قبل السفر. نهضت ليال من الفراش وغادرت غرفتها، فإذا بأبيها يقف في وجهها مبتسماً فاتحاً ذراعيه كي يضمّها، ويقول:

- الحمد للّه على سلامتك يا بعد عمري.

لكنها نظرت إليه نظرة قاسية وأكملت إلى غرفة أمّها، قبّلت يدها ورأسها ثم قصدت جدّها ودخلت المجلس دخول فرس رافضة أن تُقرّ بجرحها، ومتفحّصة عيون الحاضرين بغضب وكبرياء حتى وصلت إليه. قبّلته، وأجلسها بجواره. احتضنها ومال اليها، وهمس:

- كيفك الحين حبيبتي؟ إن شاء اللّه أحسن؟

ابتسمت ابتسامة شاحبة وأشاحت بوجهها عنه، فسألها:

- بتتعشّين معنا اليوم ليال؟

- الغريب أنكم قادرين تاكلون وتشربون، ومنال ما هي موجودة. وأنا حاسّة بالذنب إني قادرة أتنفّس وهي تحت التراب.

دُهش الحاضرون من ردّ ابنة الرابعة عشرة عاماً، فهبّت العمّة واقفة وهي تبكي، وضمّتها:

- لا يا حبيبتي، ما أحد نسى منال ولا عمرنا

بننساها. لكن إحنا نحاول نهوّن عليك. ودّنا نشوفك طيّبة وبخير.

تماسكت ليال وردّت بدون أن تذرف دمعة واحدة:

- بخير؟ أي خير يا عمّة، واللّه ما أرتاح لين ما أعرف وش اللي صار.

ومنعاً للاسترسال الذي قد يفتح أبواباً مغلقة، تدخّل الأب مهدّئاً خاطر ابنته:

- هذا قضاء اللّه يا بنتي. ادعي لها بالرحمة.

- أنا مو محتاجة أحد يقول لي ادعي لها، لكن المدارس اللي دخلتونا فيها، والدين اللي علمتونا إياه، يقول إن ربّي بيأمرنا إن اللي له حق يدوّر عليه. صحّ ولا عندك رأي ثاني؟

استغرب فظاظة ابنته وتمتم:

- اللّه يهديك.

- وليه ربّي ما هداك وقدرت تنقذها.

وعندما سمع ردّها الصاعق، اغتاظ ورفع صوته:

- أنتي انجنيتي. روحي على البيت.

لكنها لم تتراجع، فأجابت:

- أنا عند جدّي لو قال لي أطلعي طلعت.

وكي لا يتفاقم الوضع، قال الجدّ وهو يملّس شعرها:

- لا يا ليال وأنا أبوك، كلنا عارفين إنه أنتي أكثر وحدة تعبانه فينا، وأنه صعب عليك. بس مو لدرجة أنك تحكين مع أبوك بهالطريقة، أنا ما ربيتك كذا، اللّه يصلحك. اعتذري لأبوك ولا عاد تغلطي عليه.

دقائق، ونهضت مهرولةً نحو الباب، ثم ركضت إلى المنزل. ومن حيث لا تدري، وجدت نفسها بجوار الشلال، واستلقت في المكان نفسه حيث ودّعت شقيقتها، وراحت تبكي وتتحسس الأرض والأحجار كأنها تطلب منها البوح بما رأت، وأغمضت عينيها بقوّة، وهي تردّد:

- وش صار يا منال؟ قولي لي.

كان البستانيّ عبده يراقبها من بعيد. لم تغب عن ناظريه ثانية واحدة منذ خروجها من المنزل. كان ينفّذ العهد الذي قطعه على نفسه، وقلبه يعتصر من الألم لعجزه عن إلقاء طوق النجاة لهذه الفتاة الجريح التي تكاد تذبل أمام عينيه، وليس بمقدوره أن يفعل شيئاً سوى التحسّر والترصّد والصلاة.

(١١)

عادت ليال إلى المدرسة بعد غياب دام أسابيع. لم يكن اليوم الأول صعباً فحسب بل مؤلماً. فهي لم تتقبّل أيّة نظرة شفقة من القريب، فكيف تتقبّلها من الغريب. كل من حاول أن يؤاسيها أو يتودّد إليها كانت ترمقه بنظرة معناها ألا يقترب من جرحها أو أن يعزّيها. وخلال الفسحة تتنحّى جانباً، تتخيّل أختها تارةً تمشي بين الفتيات، وتارةً أخرى جالسة إلى جوارها، أو ذاهبة لتأتي بالسندويتشات من مقصف المدرسة كي تأكلا معاً كعادتهما. وفيما هي مسترسلة في التفكير، إذا بالمديرة تجلس بجوارها وتربت كتفها:

- حبيبتي، اللّه يهوّن عليك. ترى إحنا كلنا أهلك، وزميلاتك كلهم مثل خواتك.

قابلت ليال هذه العاطفة اللافتة بمثلها:

- شكراً يا أستاذة. لكن لو اجتمعت الدنيا

ما تعوضني عن تراب رجول أختي، وعلى فكره هي معي ما راحت. لكن شكراً على اهتمامك.

لم تستطع ليال التركيز لا على الدراسة ولا على الرياضة. كانت منال وحادثة موتها مهيمنتين على تفكيرها.

ذات ليلة، رأت في المنام أختها مرتدية الفستان الأبيض الذي كانت ترتديه ليلة وفاتها، فبدت أجمل بكثير مما كانت عليه في الواقع. أقبلت ليال عليها وأمسكت بيدها وراحتا تتمشيان في أرجاء حديقة المنزل. كانت منال توصيها بالحرص على نفسها:

- ليال، دراستك ومستقبلك قبل أي شي، وأهم من أي شي. الحين لازم تدرسين وتنجحين.

فجأة تحوّل الحلم كابوساً أسود غائماً إذ تعثّرت منال وسقطت في بئر عميقة. حاولت ليال إنقاذها بشتى الطرق. فكانت كلّما مدّت يدها إلى داخل البئر لتلتقط يد أختها، قالت منال:

- ماني قادرة أمسك يدك ليال. أنا خايفة... عشان خاطري روحي الحين بس ارجعي لي وطلّعيني.

استفاقت ليال مضطربة خائفة، وهي تردّد:

- أطلعي يا منال أطلعي.

صودف وصول حميدة التي راحت تسمّي عليها:

- بسم اللّه الرحمن الرحيم، ليال، ده كابوس. قومي بسرعة اشربي ميّه.

شربت ليال وأخذت تتمعّن في وجه حميدة الخمري وعينيها الصغيرتين اللتين ينبعث منهما الحنان والدفء. هذه السيّدة النوبيّة الأصل كانت هي العرين الذي تختبئ فيه لتظهر ضعفها كاملاً بلا خجل. وها هي ترتمي في حضنها تشهق بصوت متحشرج:

- ليش يا دادة ليش؟

طمأنتها حميدة وهي تمسح دموعها كي لا تراها ليال باكية:

- ده اللّه ودي حكمته. محدش يعرف الخير فين يا بنتي، أكيد الأحسن إنها تكون جنب ربّنا لأنها ملاك ومكانها في السما مش في الأرض، وكأنها بنت موت سبحان اللّه.

فزعت ليال من تشبيه حميدة وقالت:

- ليه يا دادة بنت موت؟

- يعني الإنسان الطيّب الحنيّن الصادق اللي زيّ منال، اللّه يرحمها، ما ينفعش يفضل في الدنيا. لازم يكون في مكان يعرف يعيش فيه والأرض مش المكان ده!

- يعني هي مرتاحة؟

- سبحان اللّه، لكن أكيد ما دام عند اللّه وتوفّت

في حادث تكون إن شاء اللّه شهيدة والشهدا بيكونوا في الجنة فأكيد مرتاحة.

- يا ربّ تكون مرتاحة ومبسوطة.

وروت ليال لها مشاهد من الحلم، وماذا جرى بينها وبين منال. فابتسمت حميدة، وقالت:

- الحمد للّه ربّنا بيطمنّك عليها، مهو لما تشوفي المتوفّي بحال أفضل من اللي كان عليه معناه إنه كويس. أما باقي الحلم اللّه أعلم يا بنتي معرفش افسرهولك. بس عموماً لازم تتصدّقي عن أختك كل ما تشوفيها.

أيقنت ليال أن حميدة لم تشأ تفسير الحلم كاملاً برغم وضوحه لما تضمّنه من دلالات. لكنها أدركت أن هذا الحلم رسالة واضحة من منال، أو كأنّ أختها تبعث إليها بخيط نور رفيع قد يصل بها إلى الحقيقة.

عادت ليال تدريجاً إلى الاهتمام بالدراسة متطلّعةً إلى أن تنال أعلى الدرجات تطبيقاً للتوصية التي أبدتها منال في الحلم. كذلك عاودت ركوب الخيل. ولم يمرّ يوم من دون أن تزور أحبّ الأمكنة إليها، هو المكان السرّيّ الذي كثيراً ما لاذت به هي ومنال. وتماماً مثلما كان يحصل في الماضي، دوّنت ليال ما حدث خلال اليوم. وفي نهاية الصفحة التي تمثّل يوماً من عمرها، كتبت:

- أنا حاسّة إنك معاي! ما قلتي لي وش رأيك في اللي صار اليوم؟

ذات غروب وهي تكتب إحدى يوميّاتها، نظرت إلى الأعلى، فوجدت شيئاً معلقاً بلاصق على الحائط، فنهضت وانتزعته. وإذا به رسالة بخطّ منال، هذا نصّها:

حبيبتي ليال

ما أدري أنا ليش قاعدة أكتب الورقه هذي أو ليه حاسه أنك حتقريها لحالك يمكن أكون أتزوجت أو ما أدري أيش بيصير! لكن أنا بقول لك على أشياء نفسي فيها يمكن تجيبي لي إياها في عيد ميلادي! أمزح بس ما أدري ليه نفسي نربي كلب، ونفسي ربي يرزقك بأحد يحبك وتحبيه مثلي أنا وبسام. ونفسي نسافر ندرس بأمريكا. ونفسي أكون جريئه مثلك. ونفسي أشوفك متفوقه في حياتك أو يمكن بطله رياضيه. ما أدري ليش حاسه أنه فيه دور في حياتك راح يعتمد عليه حياة ناس ثانيين. وش اللي أنا قاعدة أكتبه هذا؟ ما علينا. اسمعي، انتبهي على ماما ما حد في الدنيا بيحبنا مثل أمنا وأبونا ودادة حميدة. لكن أنا أحبك أكثر منهم.

قرأت ليال الرسالة مراراً، وانهارت من فرط البكاء

والتنهّد والحزن. لكنها أيقنت أن منال موجودة معها. ففي كل مكان تثبت منال لها أنها ما زالت حاضرة. لكن العبارة التي علقت في ذهنها هي: «دور في حياتك بيعتمد عليه حياة ناس ثانيين». مثّلت هذه الكلمات هدفاً عزيزاً على قلبها وقد وضعته نصب عينيها، مقرّرةً أن تبلغه، مهما تكن المشقّات.

(١٢)

لم يعد منزل السيّد أحمد كما كان من قبل. فقد خيّمت عليه السُحب القاتمة والتقلبات القاسية. فعلاقة ليال بوالديها تغيّرت كثيراً. فالأمّ شاردة الذهن في معظم الأحيان، من شدّة الحزن وخيبة ظنّها بزوجها الذي لم يكلّف نفسه عناء تقصّي الحقيقة في وفاة ابنته، مستنداً، في رأيه، إلى حجّة واهية هي الحفاظ على سمعة العائلة، وبخاصّة أنه كان يقول إن أوّل من سيخسر من وراء ذلك، هو ليال وسمعتها.

أمّا هو فقد هُزم أمام نفسه قبل أن يُهزم أمام أحد إذ تكتّم على الأمر، وحاول أن يحافظ على شرف العائلة. وكثيراً ما حاول أن يتقرّب من زوجته، لكنها رفضت حتى التحدّث إليه. كذلك أخفق في معاودة توطيد الصلة بابنته.

في أحد الأيام، كانت ليال في الإسطبل، وأصرّت

على أن تمتطي فرساً لم يسبق أن وُضع على ظهره سرج. نصحها السائس بألاّ تفعل، وتدخّل أيضاً عبده:

- يا بنتي الفرس لسّه صغيرة ممكن تتعوّري.

- أنت وش فهّمك في الخيل أصلاً؟ خليك في الزرع أحسن لك.

- اللّه يهديك خليهم يحطّوا سرج.

- ومين قال لك إني أبي سرج؟

ركضت وقفزت إلى ظهر الفرس ولفت ساقيها حول عنقه وتمسكّت بشعره وركلت جانبيه فجُفل وراح يرفس ويصهل مُحدثاً زوبعة من الغبار. خاف عبده وهرع إلى السيّد أحمد ليعلمه أن ليال ليست في حال طبيعية وقد يصيبها مكروه. اتّجه الأب جرياً إلى المضمار الذي يحوط المنزل، فرأها ممتطية الفرس، ومنطلقة بأقصى سرعة كأنها هاربة من شيء ما، أو كأن أحداً يطاردها. ناداها. لم تردّ، فاضطر إلى وضع سيارته حاجزاً في طريقها ليجبرها على تغيير مسارها ودخول الإسطبل. وهكذا كان.

ترجّلت ليال من على ظهر الفرس، وهي في قمة انفعالها:

- كنت بتموتني! لهالدرجة مو فارق معاك؟

- حرام عليكي يا بنتي، كنتي بتجيبي لي سكتة. كيف كنتي تركضين كذا؟

- أركض مثل ما أركض ما حد له دخل فيني.

- شوفي تراني استحملتك كثير، وكل مره أقول معليش زعلانة على أختها، لكن توصل أنك تبين تقتلين نفسك. لأ... فاهمة لأ.

- أقتل نفسي! أنت لهالدرجه عايش حالة نكران للي صار؟ مو أنا اللي محتاجة انك تحميني. اللي كانت تحتاج حمايتك ماتت وللأسف ما طالت حمايتك وهي عايشة أو وهي ميتة. فلا تحاول ترضي ضميرك بتصرفاتك هذي.

أفقده هذا الجواب صوابه، فدنا منها وصفعها صفعة قوية كادت تُسقطها أرضاً، فاندفع عبده كي يصدّ الضربات عنها، فأزاحته، وعيناها في عينَي أبيها، فلم تطرفهما، وقد تماسكت كاتمةً الألم المتأتّي من الصفعة الغاضبة، وأنهت الموقف بنبرة ملؤها التحدّي:

- يا ريت ربّي نزل عليك هالقوّة لحماية منال مو على خدّي أنا. صدقني عمري ما حسامحك على اللي سوّيته.

قالت كلمتها ومشت إلى الحديقة، وكل ما يدور في

تفكيرها هو أن لا والدها ولا جدّها ولا سواهما، استطاع أن يحمي أختها من الموت. فالحماية لا يؤمّنها الرجل مثلما كانوا يقولون.

وفيما هي تبتعد عن المكان، لبث أبوها ناظراً إليها، رافعاً يديه إلى السماء:

- يا ربّ اكفيها شرّ نفسها.

(١٣)

جاء موعد سفر بسّام. وكان يوم الجمعة هذا هو اليوم الأخير الذي تشارك فيه السيّدة سارّة التي أجّلت سفرها وسفر ولدها تضامناً مع العائلة في هذا الوقت الحرج. لم يكن هناك اتصال بين ليال وبسّام إلاّ بالرسائل النصّية لأنها لم تشأ التحدّث إليه مباشرة، كأنّها لا تريد أن تأخذ مكان منال حتى في أبسط الأمور. لكنها كانت متلهّفة لتراه كي تحدّثه عن مسائل كثيرة تشغل بالها. وعندما وصل، حاول جاهداً أن ترافقه إلى الحديقة لتقضي آخر يوم له مع بقية أفراد العائلة، فرفضت مفضّلة البقاء في المجلس الرسمي بالدور الأول. ونادت حميدة:

- لو سمحتي يا دادة لو جا أحد وحاول يسمع وش نقول، كلميني بسرعة على جوّالي.

- خير إن شاء اللّه، في حاجة حصلت؟

- لا يا دادة ما في شي. بس يمكن بسّام يكون عنده خيط يوصلني للي أحتاج اعرفه.

- على راحتك يا بنتي.

بدأت ليال بالحديث وهي حاملة المصحف:

- أحلف على القرآن إنك ما تخبّي أو تكذب عليّ في أي شي.

- أقسم باللّه إني ما حكذب أو أخبّي عليك شي. لكن وش اللي تبين تعرفينه؟

واختلطت الأسئلة بالتساؤلات، لعل معلومة معيّنة تتيح لها الإمساك برأس خيط يقودها إلى الهدف المنشود. استمرّ اللقاء ساعتين، والنتيجة اختصرها بسّام:

- لا ما شفت أحد. ما حسّيت أن في أحد غيرنا.

(١٤)

لم يستوعب بسّام ما الذي كانت تسعى إليه ليال من وراء أسئلتها. فهو يرى أن الحادثة واضحة، والطريقة التي فارقت بها منال الحياة معروفة لدى الجميع. لذا قرّر أن يصارحها:

- يا ليال، منال طاحت، وهذا قضاء اللّه وقدره. وش في داعي للشكّ؟

- كذب. أنت مو فاهم شي، منال كان فستانها مقطوع، وشعرها ملخبط، والدم ما كان من راسها.

وراحت ليال تحاول إخفاء دموعها، وهي في أوج الانكسار.

سأل بسّام والدهشة في عينيه:

- وش قصدك؟ أحد قتلها؟

- قصدي أحد اعتدى عليها وقتلها عشان يستر على اللي سواه. الحقيقة أن حجر الشلال بريء من دمها.

- أنتي أكيد انجنيتي. ما يمكن! من اللي بيعتدي

على منال وكيف دخل البيت؟ وكيف ما عرف خالي أحمد أو جدّي؟ ما يمكن. أكيد أنتي انجنيتي.

وهمّ واقفاً فأمسكتْ بذراعه، وقالت:

- اسمعني، ما دام ما أحد عرف يصير ربّي يبي يستر عليها، لكن أنا لازم أعرف. وأبيك تساعدني وتوعدني أن الكلام اللي دار بينّا ما يطلع لأحد.

أجابها بإيماءة علامة الموافقة وبدا مصدوماً. وأضحى كل منهما يسبح في إعصار من الأفكار. وعاودت ليال طرح الأسئلة:

- وين كان جاسر؟ ولو أني ما أعتقد انه ممكن توصل فيه لهالدرجة. أنت شفته وانتو تتمشّون؟

- لا، جاسر ذاك اليوم طلع بيتهم من نص اليوم وكذا أحد سأل عليه، والعم تركي قال إنه تعبان وعليه حرارة، وإن الدكتور جاه وأعطاه إبرة وما عاد شفناه. مهما كان جاسر يا ليال لا يمكن يفكر يسوّي كذا في عرضه.

واستطرد:

- حتى في أيام العزا كان إنسان ثاني ما جفّت دموعه وما نطق بكلمة. وكان هادي وودود لدرجة أنه كان واقف مع الرجال يأخذ العزا. وبعد أسبوعين سافر لندن يكمل دراسته. والعم تركي قال إن حالته النفسية

سيّئة لأن وفاة منال سببت له حالة اكتئاب، والدكتور نصحه يسافر في أقرب وقت لأنه لازم يبعد عن جو البيت.

خيّم السكون لحظات وراح بسّام يسترجع كل كلمة قالتها ليال للتفكير مليّاً في ما حدث. وليال مستمرّة في التحليل آملة أن تصل إلى بصيص ضوء ينير النفق المظلم الذي وجدت نفسها فيه، ولا تعرف أوّله من آخره. قطع بسّام الصمت:

- وخالي أحمد يعرف؟ ما يمكن إنه عارف وساكت؟

- للأسف يعرف.

- أكيد من الصدمة ما يبي يصدّق. مسكين.

- لا واللّه مو مسكين. المساكين هم أنا وأمي اللي انذبحنا.

- يعني معقولة أنك ما حاكيتيه في الموضوع ولا مرّة.

- مرّة كنت عند أمّي في الغرفة، طبعاً أنت عارف أنها تقريباً في عالم ثاني لا تحكي ولا تشوف أحد. اللّهم تطلع من غرفتها عشان تطمن عليّ وخلاص، فذاك اليوم كنت أنا عندها ودخل خالك وكان يحاول محاولاته الفاشلة إنه يهوّن عليها، وقال لها:

- وحّدي ربّك. اللّه أخذ أمانته وتوفت. وش

نسوّي. يا ريت بيدي أرجعها أو أروح أنا مكانها.

فردّت أمّي:

- مش صحيح. بنتي انقتلت وأنت عارف شو اللي صار. ما بتقدر ترجّعها صحيح، بس بتقدر تطفي ناري.

فرد عليها بكل برود:

- تعدّدت الأسباب والموت واحد. اللّه يرحمها ويجعلها في الفردوس. إدعي لها أفضل لك ولها.

وسأل بسّام:

- يعني حتى خالتي متأكدة؟

- طبعاً. والمسكينة مو طالع بيدها شي تسوّيه.

دمعت عيناه، وتمنّى عليها أن لا تخفي شيئاً عنه، وأن لا تقوم بأيّ خطوة قبل إعلامه بها. وذكرها بأن تواصلهما يجب أن يستمرّ يومياً عبر الأنترنت، مفصحاً عن أنه يكنّ لها ودّاً كثيراً، وعن أن منال أوصته بها في لقائهما الأخير. ثم ارتجف صوته واحتضنت يداه وجهه.

تركت ليال مقعدها وجلست إلى الطاولة قبالته وراحت تواسيه، وتقول لنفسها:

- أنت الرجّال الوحيد اللي قلبي مسامحك انك ما قدرت تنقذها لأنك ما كنت موجود.

لم تشأ إكمال طرح الأسئلة إذ كانت حالته أسوأ مما

توقّعت، وكتمت تساؤلات كثيرة تتصل بذلك الشخص الذي سوّلت له نفسه أن يدوس شرف عائلة كاملة ويبلبل حياتها.

قبل أن يخرج بسّام التفت إليها وقال:

- آسف إن مو بيدي أني ألغي السفر وأكون معاك في كل خطوة. لكن إن شاء اللّه الوقت يركض ونتقابل في الإجازات وأبيك تتأكّدين إني ما راح أتركك أبداً.

بدت أمارات الراحة على وجه ليال للمرّة الأولى منذ الحادث.

انتهى اللقاء، لكن بسّام لم يصدّق كل ما قالته ليال، فحدّث نفسه بأنها ربما تهذي من جراء هول الصدمة، لأن أحداً لم يذكر ما ذكرته هي عن اغتصاب منال. وذهب في اليوم ذاته إلى والدته وسألها عن صحّة ما سمعه من ليال. فكان ردّها:

- اللّه أعلم.

لم تؤكد ولم تنف. وعندما ألح عليها، صارحته:

- أنا شاكّة انه في شي مو طبيعي. لكن دام أخوي أحمد وحرمته ما يبون يحكون أنا محترمة خصوصياتهم ومقدّرة حزنهم على بنتهم واللّه يصبرهم.

(١٥)

أتمّت ليال الفصل الدراسي وحلّ الصيف. رفضت السفر لتمضية الإجازة في منزل العائلة بفرنسا. لكنها سافرت وأمها إلى سوريا لعلّ وجود الأم وسط أهلها ينعكس إيجاباً على حالتها النفسية. لكن تساؤلات ليال بدأت تدخل حدود اللامسموح، بعدما تخلخلت كل المعاني غير القابلة للخرق في حياتها. فالمنزل الذي كان حصن الأمان، هو المكان نفسه الذي تستّر على جريمة اغتصاب أختها وقتلها. والأب الذي كان رمز الحماية والقوّة تهشّمت صورته في نظرها لضعفه في مواجهة المشكلة وتخاذله في الأخذ بالثأر. والجدّ لم يعد الرجل الذي يحمل عصا سحريّة لعجزه عن الإتيان بالفاعل وجعله يذوق كأس المرّ نفسها. أما أمّها فتحوّلت من سيّدة ممتلئة بالحياة إلى جسد تدور دورته الدمويّة لكنه من دون روح.

هذا كله حدث في يوم وليلة. لم يلتفت أحد إلى

الفتاة المكسورة بل لم يعطِها أحد تفسيراً لما حدث. لذا بدأت تشكّك في الجميع إلا اثنين بسّام وحميدة.

في أثناء وجودها في بيت جدّها في سوريا، علمت أن هنالك رجلاً يريد مقابلتها هي وأمّها. وقد قدّم نفسه على أنه شيخ مبارك، جاء بعدما أخبره أحد أصدقائه في الحيّ أن سيّدة وابنتها وفدتا قبل يومين، وأنهما في حال حزن شديد على فقدان شخص عزيز عليهما. وأبدى استعداداً لمساعدتهما على تخطّي معاناتهما بوصفات أسداها إلى كثيرين مرّوا بالمحنة نفسها، في الشام وجوارها، وكانت نتائجها مذهلة. رحّب به أهل الدار من باب اللياقة، والتزاماً بأدب الضيافة. فهم على ما يبدو، لا يعرفون شيئاً عنه برغم شيوع اسمه وخزعبلاته في الأحياء المجاورة. فيما هو ينتظرهما، حكى أن لديه محاولات ناجحة في قراءة الطالع والعلاج بالحجب والعثور على المفقود والمداوة بالأعشاب وغير ذلك من الأمور التي يلجأ إليها المشعوذون باسم الدين، لسلب البسطاء والفقراء واللاهثين وراء الأمل. وبعدما استراح قليلاً، رغب في أن يرقي ليال وأمّها قبل إعطائهما وصفته الشافية التي تجعلهما تتغلبان على حزنهما، وعلى الحال الصعبة التي تعيشها السيّدة نوّارة. في البدء، رفضت ليال بشدّة. لكن الأمّ شاءت أن تجبر خاطر والدها الذي تمنّى

عليها أن تقابله، فطلبت من ابنتها أن تعدل عن موقفها وتلحق بها. عقب انتهائه من رقيتها، أبلغها أنه يودّ مقابلة الصغيرة بحسب ما سمّى ليال تحبّباً. فذهبت ترجو من ابنتها المكوث بضع دقائق معه فقط، كي يرقيها ثم تفعل ما تشاء. لم تخذلْ أمّها هذه المرة. نزلت رافعةً شعرها، ومرتدية بنطلون جينز وتي شيرت. طرقت باب المجلس ودخلت. رأت رجلاً ذا لحية موشّحة بالشيب، يتوسّط المكان مرتدياً جلباباً أبيض. حيّته وجلست على الأريكة المجاورة لمقعده. قال بأسلوب مهذّب ساتراً به شخصيته الزائفة:

- شو رأيك تغيري تيابك وتلبسي أيشارب؟

- أولاً أنا مو محجّبة، ثانياً أنت اللي طلبت تقابلني... ولو مو عاجبك شكلي أستأذنك.

وهبّت واقفةً. فنظر إليها بامتعاض وكزّ أسنانه، وبدأ يمهّد طريق الحوار معها بتلاوة بعض الآيات القرآنية بطريقة غير مفهومة. لم تكن مبالية بما يفعل، وظلّت متسمّرة في مكانها. فتململ:

- اللّه يهديك. يا بنتي تعي لعندي.

جلست قربه. وحدّثها بصوت هادئ لكنه لم يستطع إخفاء امتعاضه. وقد فوجئت بأنه يعرف سبب مجيئهما الى سوريا، وأموراً أخرى عندما قال:

- لازم تدعي لأختك وترضي باللي مكتوب، وما تخلّي الشيطان والأفكار السوداء تسيطر عليك. أنا بقدر أساعدك أنك تتخطّي هالأزمة، لكن لازم تحكيلي شويّ يااللّي بتحسّي فيه أو إذا بتشوفي كوابيس منشان أوصفلك العلاج المناسب.

- أنا ما أستنّى أحد يقول لي ادعي لأختك، أو اترحمي عليها! الشياطين هم شياطين الإنس مو الجن. أنت مقرئ ولا دكتور نفسي عشان أحكي لك وش أحسّ فيه؟ إذا بتقرا عليّ، ترى آيات الضيقة وحده ما تتغير.

قاطعها محاولاً امتصاص غضبها، وأخرج أنبوباً نحاسيّاً مفتوحاً من كلا الطرفين، وطلب منها أن تقترب منه وتثبت، ليضع طرف الأنبوب على أذنها ويقرأ عليها من الطرف الآخر. استنكرت الطريقة غير المألوفة لدى عموم المقرئين، فأمسكت بالأنبوب لتستكشفه ولاحظت في طرفه سورة الفلق بالمقلوب، ففطنت فوراً إلى أنه مشعوذ دجّال يحاول إيهامها هي وأمّها بأنه منقذهما مما هما فيه، طمعاً بالمال، أو بمكاسب أخرى:

- وش ذا؟ أعوذ باللّه منك ومن الأنت كاتبه! أنت قالب القرآن؟ أنت دجال! أصلاً من الأول وقلبي لا هو مرتاح لك ولا مرتاح لأسلوب قرايتك اللي بتمتمة. أنت وأمثالك مصيركم جهنم.

خاف الرجل وارتبك وتحوّلت ملامحه المطمئنة إلى ملامح غاضبة:

- استغفر اللّه من ذنبك. استغفري. هدا كفر. أنا أقلب القرآن؟ واضح إن صدمة أختك أثّرت على عقلك...

نهضت وقالت دون أن تخفي عدم ارتياحها:

- أنت شيطان مو إنسان...

عندما سمع الرجل هذه العبارة، أوشك أن يردّ لكنه لم يفعل خوفاً من أن يلاحظ أحد ما حدث، فراح يتمتم كأنه يستغفر اللّه على غرار ما يفعل الشيوخ الشرعيون في حال كهذه. إنه محترف في الخداع والمكر. لكن ألاعيبه لم تمرّ على ليال التي سرعان ما كشفتها. بعدما غادرت المجلس، ساورها شعور بالزهو. لقد أفحمت هذا المدعي المحتال، وفضحته بعدما جردّته من أسلحته. عادت إلى غرفتها وروت لحميدة ما حدث وهي غاضبة من ذلك الدجّال الذي أراد أن يقنعها بشعوذته، حاله حال الآخرين الذين أبوا أن يعترفوا بما حدث لمنال، وأصرّوا على إقناعها بما لم يتقبّله عقلها. عجزت حميدة عن تهدئة عاصفة الظنون التي ذهبت بليال إلى الشكّ في كل شيء، وجعلتها تتمرّد على ما هو غير واضح أو مقنع. لم يستطع أحد أن يقرّ بما رأته عيناها من فستان

ممزّق وجسد مدمّى. وهي رفضت القبول بفكرة إنكار الجريمة، ورفضت كذلك التفسيرات الوهميّة التي ساقها والدها لطمس الحقيقة. لذا أبت أن تجاري من يحاول الاستخفاف بعقلها.

مرّت أيّام الصيف. لم تركع ليال خلالها ركعة واحدة. ولدى وصولها إلى الوطن وجدت عبده في استقبالها هي ووالدتها بالمطار، فأثار ذلك دهشتها. وما إن اقتربتا منه حتى حيّاهما وسألها عن حالها. نظرت ليال إليه باستغراب. لكن نظراته الملغّزة أيقظت فضولها. وقد بكى فَرِحاً برؤيتها. فمازحته:

- إيه بخير أنت وش شايف يا عجوز. المهم أنت طمّني كيف الشجر؟ تمام!

هزّ رأسه بالإيجاب. ربتت كتفه وراحت تخطو بجانب والدتها نحو السيارة. في الطريق، كانت ليال شاردة تفكر في مأساة أمّها التي لم تغيّرها رحلة سوريا، فبقيت غير قادرة على التواصل مع أقربائها الذين هم أيضاً فشلوا في انتشالها من دوّامة الصمت التي تحيط بها. حتى أحاديثهم عن ابنتها الراحلة لم تحلّ عقدة لسانها. في السيارة لم تتفوّه أيّ منهما بكلمة. أحبّت ليال أن تهزم الصمت، ففتحت الراديو على إذاعة بانوراما، وإذا بالسيّدة فيروز تشاركهما في حالتهما

النفسية بصوتها المُعزّي «أديش كان فيه ناس عالمفرق تنطر ناس. . .». تنهّدت الأمّ قائلة:

«أبوكي بيحبّ هيدي الغنية».

خافت ليال. وبحركة لاواعية، أطفأت الراديو كأنها رافضة مشاركة والدها في ما يحبّه.

ها هم على بُعد ثوان من المنزل. وسرعان ما فُتحت البوابة الحديدية، وسلكت السيارة الطريق الوحيد المفضي إلى باب منزل السيّد أحمد. توقّفت، ترجّل السائق وأسرع ليفتح الباب للسيّدة نوّارة ثم للآنسة ليال. في هذه الأثناء، كان السيّد أحمد واقفاً قرب باب القصر ينتظرهما، وقد بدا مرهقاً جداً. وجهه شاحب وعيناه غائرتان تلفّهما هالة سوداء. ألقت الأمّ السلام عليه وصعدت السلالم. أما ليال فمرّت كأنّها لم تره، وقصدت الحديقة. لكن ما كتمته كان مختلفاً عمّا أظهرته. وعندما توارت بعيداً، وتأكّدت أن لا أحد يراها، راحت تركض في اتّجاه الشلال.

(١٦)

لم يعلم أحد الآلام الشديدة التي تواجهها ليال منذ رحيل شقيقتها. لم تكن عيناها تهنآن يومياً بأكثر من أربع ساعات من النوم المتواصل. فالكوابيس جعلت ليلها طويلاً، وكان مضمونها واحداً برغم تنوّعها: الهروب من شخص مقنّع يسعى إلى قتلها. ربّما تبدّل المكان أو الزمان لكن الكوابيس تبقى هي نفسها، لا تتغيّر. كأنها عقاب لليال لأنها تركت منال تواجه ذلك المصير وحدها.

عادت ليال إلى دوّامة الحياة الرتيبة. وكان شغلها الشاغل التفكير في منال، ومواصلة السعي إلى معرفة ظروف وفاتها، والمذاكرة ليلاً ومتابعة الدراسة نهاراً. فالسنة سنتها الأخيرة لنيل الثانوية العامة. وبعد ذلك يأتي ركوب الخيل والركض. كانت تعدو حول المنزل قرابة ثلاث مرات يومياً، كأنها تهرب مما يحاصرها من تساؤلات كادت توصلها إلى حافّة الجنون.

ولمّا ملّت الروتين، قرّرت أن تبحث عن مخرج.
وكعادتها في المساء، فتحت الكمبيوتر كي ترى صور أختها ومقاطع الفيديو التي تجمعهما معاً، وإذا بالماسنجر يطلق نغمة تسجيل دخول بسّام، فرحّبت به. سألها عن إجازتها، وعن حال جميع أفراد العائلة، فطمأنته إليهم وإلى نفسها. وروت له ما حدث مع الشيخ في سوريا، فأثنى على موقفها لافتاً الى أن أمثال هذا المشعوذ يتكاثرون في معظم البلدان، خصوصاً بعدما أسهمت فضائيات عربية عدة في الترويج لبعضهم. وعندما ردّدت أنها باتت متشكّكة في كل شيء، سكت متفادياً القول إنها إذا استمرت في ذلك، فالإلحاد هو نهايته حتماً. فكتبت:
- ليش ساكت؟ زعلان مني مثل دادة حميدة؟
- ما أقدر أقول لك إنه عادي وماني شايف إن الردّ اللي بقوله بينفعك الحين.
- ليه يعني؟
- لأني متأكد أنك مو مقتنعة باللي أنتي تسوّيه، لأنك لو شايفة إنه صحّ ما كنتي اهتمّيتي برأيي. أعرفك يا بنت خالي.
أمسكت ليال بدفّة الكلام وسألته عن آخر كتاب قرأه. فهما، كما سائر أفراد العائلة، تربّيا على أهمية الورق لا على أهمية هواء اللاسلكي والأقمار الصناعية.

فالكتاب كان، ولا يزال، خير أنيس لهم في الوحدة، وفي ساعات السفر، ومتى شاء أحدهم إشباع نهمه إلى المعرفة، أيّ معرفة. لفتها بسّام إلى أنه بدأ يهتمّ بعلم التأمّل، وهو علم قادم من الشرق الأقصى، مفيد لتطوير الذات ولتلقين المرء كيف يصبح سيّد حياته وممسكاً بزمام معظم الأمور. وأعجبها تضمّنُ هذا العلم تمرينات يوميّة تساعد على تصفية الذهن وتهدئة الأعصاب والتمعّن في مسائل الوجود. أبدت اهتماماً ملحوظاً، وسألته مزيداً من المعلومات. أخبرها أن ما مارسه إلى الآن مقتصر على جلسات لضبط حركة التنفّس، وعلى تعلّم أساليب تتيح له التحكّم في ردود أفعاله، وتلقّي أيّ حدث، مهما تكن أهميته، بهدوء وتفكير إيجابي. صمّمت على الخوض في هذا المجال الجذّاب، هي التي تهوى الاكتشاف والغوص في أعماق كل جديد، وفكّرت أن تزور أحد المجمّعات السكنيّة الأميركية في الشرقية، لعل دورات في التأمّل تُقام فيه، فتنتسب وتكتسب علماً هي في أمس الحاجة إليه كي يساعدها على الصمود والمواجهة.

قبل اختتام الدردشة، سألها هل هنالك خبر جديد يتصل بموت منال. فردّت بالنفي.

(١٧)

لم تتوقّف عجلة الحياة. وراحت الروزنامة تنثر الأيام ورقة ورقة. فلا أحد يستطيع وقف سير تلك العجلة المُسرعة. لو كان ذلك ممكناً لأوقفتها ليال لدى عودة منال من اللقاء الوداعي لبسّام، وقبل وصولها إلى الشلال، ولما حصل الذي حصل. فما حصل أرخى بظلاله الشاحبة على الجميع، وخصوصاً على الفتاة اليافعة التي لم تصدّق أنها تذهب يوميّاً إلى المدرسة، وأختها ليست إلى جانبها في المقعد الخلفي للسيارة، بدلاً من حميدة. طوال الطريق، يتراءى لها وجه منال في كل شيء. في الغيوم المبعثرة في الفضاء، في الأشجار التي تعانق أطياف المارّة وتحتضن الطيور، في الطرق والمباني وملامح العابرين. ودوماً تعصف التساؤلات والشكوك المتعلقة بجريمة الشلال، فتهتز طمأنينتها الموقّتة، ويزداد إبحارها في التحليل والأفكار المتناقضة. ولا تعود إلى الواقع الأليم إلاّ حالما تقف

السيارة في مدخل المدرسة، فتترجّل منها لتبدأ يوماً دراسياً جديداً.

حتى خلال الشرح في الفصل، ثم في الفسحة، كانت ليال تحاول جاهدةً أن تستوعب وفرة الأسئلة المقلقة، وغالبيتها مرتبطة بموت أختها. يقرع جرس انتهاء الدوام فتعود إلى المنزل بالسيارة نفسها، جالسةً في المقعد الخلفي نفسه بجوار حميدة، وتواصل التفكّر وطرح الأسئلة خصوصاً عندما يُضاف شكّ آخر إلى قائمة الشكوك القديمة. وما إن تصل إلى المنزل حتى تقصد الشلال، فتقف عشر دقائق متأمّلة المكان حيث كانت أختها مسجّاة. ثم تزور والدتها لتطمئن إليها. وحين تغيّر ملابسها وتتناول الغداء، تلوذ بغرفتها فتمضي ساعة تقريباً جالسة أمام النافذة تحلّل وتتأمّل. بعد ذلك يأتي دور ركوب فرسها المفضّل، فمكانها السريّ ثم الكمبيوتر فالإخلاد إلى النوم. على هذه الوتيرة، تمرّ الساعات والأيام.

ذات يوم، كانت كالعادة، جالسة بجوار نافذتها، عندما فوجئت بعبده يراقبها من بين جذوع الأشجار. أطلّت من النافذة ونادته. لم يردّ. وسرعان ما توارى. تكرر الأمر في اليوم التالي. عندئذ قررت أن تعرف سبب المراقبة وما وراء تصرّفاته غير الطبيعية، فنزلت إلى

الحديقة، وعندما اقتربت منه سألته:

- أنت وش مشكلتك؟ ليش قاعد تراقبني وكل تصرّفاتك غريبة؟ لازم ألاقيك في كل محل أروحه. . . ليه؟

بصوت يقطعه الخجل والخوف قال:

- خايف عليكي. كل اللي أنا بعمله إني بحاول أكون جنبك عشان ما تتعرضيش لأذى.

- خايف من أيش؟

- خايف عليكي من نفسك. ولازم أكون جنبك.

- ليه لازم؟ في شي تعرفه ومخبّيه؟ اتكلّم يا عم عبده.

- لا أبداً. ما فيش حاجة وإيه اللي ممكن أعرفه غيري مايعرفوش؟

سكتت. لم تقتنع بما قاله، خصوصاً أنها حاولت بكل الطرق أن تجعله يفصح عما إذا كان هناك ما يخفيه، فأنكر. لكنه أدرك ما ترمي إليه أسئلتها.

(١٨)

ليس هنالك شيء جديد إلى الآن. لا تزال ليال تصارع وحدها. وتزداد اندفاعاً يوماً بعد يوم، لعلّها تعثر على ما يشفي غليلها بعد طول انتظار وترقّب. خشيت حميدة أن يصيبها مكروه إنْ هي واصلت التحرّي والاستيضاح. حتى بسّام تدخّل لثنيها عن إكمال الطريق الذي تسلكه. لم تستمع إليهما. أو استمعت لكنها قرّرت أن تفعل ما كانت قد بدأت به. لن تتراجع ما دامت دماء أختها تستصرخها أن تتابع السعي حتى ظهور الحقيقة، وما دامت الشكوك تأكل وتشرب وتنام وتصحو معها.

وحدث ذات ليلة أنها كانت وحميدة في غرفة المعيشة تتحادثان قبل الذهاب إلى النوم، فخطر لها أن تسألها:

- دادة أنتي عمرك ما تزوّجتي؟ جدّ أنا عمري ما سألتك السؤال هذا، بس نفسي أعرف.

- اتنيّلت على عيني وأنا في سنّك تقريباً. وكان واحد من عيلتنا في النوبة. لكن ربّنا ما كتبش نصيب أكتر من سنة. وبعدين كل واحد راح لحاله. وهو اللي خلاني أحرم أفكر في الجواز تاني.

- ليش؟

- لأنه كان مش طبيعي، مسكين كان عنده صرع، وأهله ما كانوش عارفين إن ده مرض. كانوا فاكرين إنه داخله جن.

- داخله جن! ليه يا دادة؟ يعني هو كان حلو لهدرجة عشان تحبه جنية مثل ما نشوف بالأفلام.

- واللّه هو ده اللي حصل وربّنا ما يوريكي طفلة عندها ١٧ سنة تشوف واحد قدامها مرمي على الأرض وجسمه زي الخشبة، وبيطلّع أصوات غريبة. والمفروض إني أحطّله حاجة في بقّه عشان ما يقطعش لسانه. طبعاً كنت بموت من الرعب ويا ريت على كده وبس... والباقي ما ينفعش اقوله عيب. انتي لسه صغيرة.

هذه القصة كانت نقطة أضيفت إلى معنى كلمة رجل في قاموس ليال.

(١٩)

كانت ليال تحاول أن تخرج والدتها من عزلتها والترفيه عنها. مرة تلجأ إليها كي تشرح لها أحد الدروس، ومرة تتمنى عليها أن ترافقها إلى السوق. وعندما فشلت جميع المحاولات، راحت تتوسّل إليها أن تجلس معها في غرفة المعيشة المجاورة لغرفة نوم الأمّ. وكان الرفض هو الردّ الدائم.

أمّا الأب فلم يفقد الأمل في إصلاح علاقته بليال وبزوجته. فكثيراً ما حاول أن يستدرّ عطفهما لكن بدون جدوى. حتى إنه أحضر لليال حصاناً عربياً أصيلاً أسود، كان أحد أبرز أحلامها منذ الطفولة. رفضت أن تتسلّمه. رفضت حتى أن يبيت بجوار خيولها. لم تقبل به لأنه جاء عن طريق أبيها. وهذا ما أعلنته جهاراً.

وصلت ليال إلى نهاية فصل كامل من حياتها المدرسية. لم تحقق النتائج المتوقّعة لكنّها نجحت. في

تلك الأثناء، بدأ جدّها يتردّد إلى المستشفيات، يرافقه والدها على الدوام. لم يكن عادل قادراً على مزاولة العمل وتولّي شتى المشاريع والصفقات. فراح يكلف تركي إتمام مهمّات التفاوض وتوقيع العقود والمتابعة.
اغتنم تركي الفرصة، وأخذ ينتش المال بطرائق ملتوية كي يطعم نار جشعه، التي لم تشبع. فكلما أطعمها ازدادت جوعاً ونهماً. وكان يستر الكره الذي يضمره لأخيه بتصرّفات توحي أنه يكدّ في العمل، ويبذل أقصى الجهد كي يثبت جدارته. ويعترف له بين الحين والآخر، بأن الحمل ثقيل، لكنه على أتمّ استعداد لتحمّله كي يريحه. هكذا تسرّبت مفاتيح الثروة الواحد تلو الآخر من بين يدي السيّد عادل، واستقرّت بين مخالب تركي.
حدث ذلك كله بهدوء ورضى. لم يلحظه سوى ليال التي وقفت بالمرصاد، تراقب كل حركة داخل المنزل، وتسعى إلى أن تكون على بيّنة من مجريات الأمور. كانت كالثعلب الذي لا يغمض عينيه الاثنتين عندما ينام، بل يترك واحدة مفتوحة تحسّباً للضربات الغادرة وخبث المتربّصين. لم تترصّد من باب الفضول أو من باب التدخّل في شؤون الآخرين. بل لعلها تلتقط من كلمة، أو من حركة، أو من أيّ تصرّف يدعو إلى الريبة، إشارة تقودها إلى معرفة ما حدث في الليلة المشؤومة. لم تغب

إلاّ في ما ندر عن الأحاديث التي دارت بين جدّها وعمّها، ومحورها إدارة الشركة والصفقات والمشاريع والمشكلات الواجب معالجتها. كانت تتابعها أوّلاً بأوّل، وقد سهّل مهمّتها هذه، كثرة نوافذ المنزل المفتوحة دوماً وكبر حجمها وقربها من الأرض.

(٢٠)

أخذت الحالة الصحيّة للسيّد عادل تتدهور شيئاً فشيئاً، فحالت دون حضوره الحفلة التي تقام سنوياً للاحتفال بنجاح أولاد العائلة.

حاول بسّام إقناع ليال أن تقابله في منزل العائلة الصيفي لقضاء الإجازة على جاري العادة. رفضت واقترحت أن يتقابلا في الشرقية التي حتماً سيزورها قبل السفر إلى موناكو، فوافق. لدى وصول السيّدة سارة وزوجها وابنها لم يتّجهوا إلى منزلهم بل انتقلوا من المطار إلى منزل عادل للاطمئنان إليه وإلى السيّد أحمد وعائلته. كان بسّام مسكوناً بطيف منال التي لم تفارق خياله. وأمل أن يرى النسخة الشبيهة بها لاشتياقه إلى الأصل. فبعث لليال برسالة على الجوّال:

- أنا عند جدّي. تعالي.

وإذا بليال تدخل غرفة جدّها قائلة:

- الحمد اللّه على السلامة.

وقف بسّام مرحّباً، وصاح وهو مأخوذ بإطلالتها المباغتة:

- منال.

جمدت ليال في مكانها ثواني:

- منال! من زمان ما سمعت أحد يناديها.

حاول أن يعتذر. فقالت:

- بالعكس أنت الوحيد اللي لا يمكن أزعل منك لأني متأكّدة أنك ما حتقصد إنك تجرحني في يوم.

سلّمت ليال على عمّتها وزوجها، وجلست بجوار جدّها. ثم نزلت وبسّام إلى الحديقة، واتّجها نحو الشلال. فجأة شعر بسّام أنه عاجز عن المشي. لم تطاوعه قدماه، فتوقّف. التفتت ليال إليه مستفسرة:

- ما تبي تروح عند الشلال؟

فهزّ رأسه بالنفي.

- تصدّق إني كل يوم أجي هنا، وأعيش نفس اللحظة وكأني أنا وجرحي صرنا أعز أصحاب.

- حرام عليكي نفسك. كيف قادرة تتحمّلي!

- ما أدري إذا بتفهمني، أنا إلى الآن مو قادرة اتعدّى هاللحظة اللي كنت واقفة فيها هنا وأختي قدامي. صدقني أنا اللي ما أبي أعدّيها.

- ليه؟

- لأني لو عدّيتها بتصير ذكرى ولو صارت منال ذكرى هذا اللي ما يمكن اتحمّله.

- لازم تعدّيها يا ليال.

- أنا قادرة أعيش... أتنفّس... أحسّ... آكل، لأني لين الحين بخيالي أختي ممكن ترجع بأي لحظة. وبأي طريقة لازم اثبت لها أني لسه معها.

- تثبتين لها ولاّ تثبتين لنفسك، تُرى النسيان نعمة مو نقمة.

- يمكن ربك أنعم بها عليك لكن النعمة هذي أنا ما أبيها.

- اسمعي يا بنت خالي، مثل ما فيه شرّ فيه خير، ومثل ما فيه ظلم فيه عدل. لكن كل شيء له وقت.

- إيه طيّب.

قالت الكلمتين الأخيرتين وراحت تحدّث نفسها:

- ممكن في يوم يرجع لي حقّي؟ ممكن النار اللي في قلبي تبرد؟ طبعاً لا ما في معجزات. لو كان فيه ما صار لأختي كذا. بسّام معه حق كل شيء له وقت، والشرّ اللي صار ما في خير يقدر يمحيه.

غادر بسّام إلى منزله. وخلال العشاء مع والديه، علّقت أمّه:

- قطّعت قلبي اليوم لما قلت منال. أستغفر اللّه. للحظة حسّيت أنها منال مو ليال. وبعدين فقت لنفسي ومسكت حالي إني ما ابكي قدامها. الحمد للّه كأني شايفتها أحسن وأهدى.

- أحسن وأهدى أيش يا أمي. هذا السكون اللي قبل العاصفة. ليال مثل القنبلة الموقوتة. اللّه يعينها. حياتها انقلبت في دقايق ويا ريت أحد يواسيها أو يوقف جنبها. أمّها في عالم ثاني وأبوها اللّه يستر عليه. حتى أنا، الوحيد اللي تحكي معه، مو قادر أكون معها.

(٢١)

لم تنقطع ليال عن ارتياد مكانها السرّي، والمكوث فيه لكتابة يوميّاتها. ذات مرة، فيما هي تكتب طرأت على بالها أسئلة كثيرة، يتعلّق معظمها بها، وبالأيام المقبلة. ماذا ستفعل بعد المدرسة؟ بأيّ جامعة تلتحق؟ أيّ تخصص تختار؟ وكالعادة، مرّ قبالتها الشريط نفسه: غياب منال، تدهور صحّة جدّها، انزواء والدها ورفض أمّها للحياة، مصير الشركة وسائر الممتلكات.

بعد طول تفكير، أيقنت أن عليها ضمان حقّها في المحافظة على نمط الحياة المرفّهة التي اعتادتها. وخصوصاً بعدما أصبح تركي الآمر الناهي في كل ما يتعلّق بثروة العائلة، وموضع تقدير لدى الجميع لتحمّله المسؤولية كاملة. فهو يعرف أن يمهّد لذلك. فكي يظلّ بمنأى عن المساءلة والمحاسبة، تصرّف تصرّفاً ذكياً، ظاهره يدلّ على الكرم والعدل، وباطنه يدلّ على الحنكة والمكر. إذ راح يرسل إلى كل فرد شهريّة كبيرة يستحي

مَنْ تربّى في كنف عائلة حمد أن يطالب بأكثر منها.

وحدها ليال كانت خارج السرب. فإيمانها بحقّها وحقّ أختها في تلك الثروة، ثابت. وهي ليست مستعدّة للتنازل أو التخاذل، مهما تكن الصعوبات والأطماع.

في ذلك الحين، أضحى لقاؤها وبسّام محطّة يومية أساسية. كذلك لقاؤها وحميدة التي بابتسامتها وكلماتها تشيع الهدوء وتطرد من رأس ليال الأفكار السوداء.

ذات ليلة جمعة، كالعادة التقى الجميع للعشاء، ما عدا ليال التي رفضت أن تنضم إليهم، برغم أن جدّها هو الذي ألحّ، خصوصاً أن هذا اللقاء العائلي هو الأول بعد تماثله للشفاء. فقد تركت جوابها معلّقاً بين القبول والرفض. عندئذ شاءت السيّدة سارة الوقوف على خاطر أبيها ودفع ابنة أخيها إلى تغيير موقفها والانضمام إلى المائدة، فقصدت والسيّد أحمد غرفة المعيشة حيث كانت ليال تشاهد برنامج أوبرا ونفري التلفزيوني. فهي تعلّمت من كتب علم التأمّل أن المرء عندما يقوم بعمل ما، يجب أن يعيش فصوله كأنه أوّل وآخر ما لديه في هذه الدنيا. لم تشعر بخطوات عمّتها ووالدها إلى أن بلغا منتصف المجلس. وعلى الفور، حيّت العمّة وقبّلت رأسها ويدها كعادتها. وما إن عادت إلى مقعدها حتى قالت العمّة بدبلوماسية:

- حبيبتي أنا ما قدرت آكل من غيرك، تراك واحشتني كثير. يلا قومي معي عشان نتعشّى سوا.

بكل احترام ولباقة أمسكت بيد عمّتها وهي تتنهّد:

- جيّتك على راسي يا عمّتي، لكن أنا ما أقدر أخلي أمّي لحالها. دادة حميدة نامت وأنا ما آمن لأحد غيرها ينتبه على أمّي.

تدخّل الأب مبتسماً:

- طيّب إذا هذي حجتك أنا بقعد وأنتي روحي، وبلا ما أتعشى اليوم. المهم انك تطلعين من البيت شوي.

تعمّد بتدخّله اللطيف أن يمازح ابنته متناسياً أنها تغيّرت. ولم تعد تلك الطفلة التي كانت تحبّه وتحترمه. وردّت بحدّة:

- أنا حدّدت الدادة حميدة. وبعدين وش قصّة اطلع من البيت؟ مو كفاية واحدة.

عندئذ علمت العمّة أن موقف ليال من أبيها ليس متأتياً من حال الحزن بل من كراهية معلنة. ولمّا أحست ليال بخيبة الأمل ترمح داخل عينَي عمّتها، قالت:

- معليش انا عارفة أنك بتقدرين وضعي. وما أنتي زعلانة منّي.

غادرت سارة، ورافقها أحمد، إلى منزل والدهما.

لم تتناول لقمة واحدة بل التزمت الصمت طوال وقت العشاء. شعر عادل أن هنالك أمراً يحزن ابنته، فدخل إلى مكتبه وطلب ان توافيه بمفردها:

- خير يا بنتي في شي ضايقك؟ من وقت ما رجعتي من عند ليال وأنتي متغيّرة! قالت لك شي زعلّك؟

- لا يا بوي هي مسكينة. لكن أحمد اللي حزّني أكثر.

- ليه وش صار؟

- البنت ما هي قادرة تناظر أبوها وكأنه هو السبب في اللي صار لأختها.

أنا حاسة انها تكرهه.

- ما يمكن تكرهه. هذا أبوها يا سارة. بس هي لسه مو متقبلة فكرة ان منال ما صارت معها، عشان كذا هي فاهمة أن في سرّ في الموضوع مثل ما قال لي أحمد. اللّه يهديها.

- وأنت متأكد يبا أن الموضوع ما فيه سرّ؟

- سرّ أيش؟ لا مافي سرّ ولا شي. هي بس لسه ما فاقت من الصدمة. عشان كذا يتهيّأ لها أشياء.

قضى بسّام الأيام الباقية مع ليال محاولاً الحدّ من اندفاعها الجامح. كان يأمل أن يغيّر شيئاً مما في داخلها خصوصاً أن لا دليل إلى الآن يثبت ما تدّعيه في شأن

وفاة أختها، إلاّ عبده. فهو علامة الاستفهام الوحيدة التي أقلقت بسّام. فسأل ليال عن سبب رؤيته عبده في كل مكان تكون فيه. فروت له حادثة النافذة:

- أنا مثلك كنت مستغربة في الأول، لكن أتخيل انه حزنان عليّ. وبي يوريني انه جنبي.

لكن بسّام لم يقتنع بروايتها وتحليلها. وشاء أن يحتفظ بوجهة نظره هذه. ولم يفصح لها عمّا راوده. فهو سيسافر بعد بضعة أيام كي يكمل إجازته قبل أن يعود إلى أوروبا، فلم يرغب في أن يدخل شكوكاً جديدة إلى دوّامة أفكارها.

(٢٢)

كانت ليال تتنزّه في الحديقة عندما رأت السيّد تركي قادماً من العمل. أوقف سيارته بجوار مدخل بيت عادل. ألقت عليه التحيّة ثم قالت معاتبةً:

- أنا زعلانة منك لأنك ما تسأل عنّي.

- واللّه مشاغل. أنا أطمن عليك من جدّك وأبوك دايم.

- أبي آخذ رأيك في شي.

- تاخذين رأيي؟ جديدة! طيب وش عندك؟

- رأيك أدرس كمبيوتر ولاّ إدارة أعمال. أي أفضل؟

- إذا عليّ أنا طبعاً إدارة أعمال لأنه شي أفهم فيه. أما الكمبيوتر فمعرفتي فيه مو هالقد.

- لو درست إدارة أعمال ممكن تسمحلي إني أتدرب في الشركة؟

- شكلك طالعة لي يا بنت. مو طالعة لأبوك ولا لجدّك.

- يا ليت يا عمّي.

ضحك تركي ولفّ ذراعه حول رقبتها وسارا معاً إلى منزل الجدّ.

كانت تلك هي تذكرتها لحجز مقعدها في درجة سيّدات الأعمال، آملة أن تحتلّ الصدارة في وقت غير بعيد.

التحقت بالجامعة، قسم إدارة الأعمال، وبدأت أيام الدراسة التي كانت مختلفة كل الاختلاف عن نمط المدرسة. فهي ترتدي ما تريد، تجدل شعرها أو تفلته. والأهمّ أن الـ«I pod» أصبح رفيقها الدائم الملتصق بأذنيها معظم الوقت، وليس في أوقات الفسحة كما في أيام المدرسة. لم تُقدِم على تكوين صداقات في الأيام الأولى، بل كانت تصدّ كل من يحاول أن يصادقها لأن لديها صديقة واحدة وأختاً واحدة هي منال، ولن يأخذ أحد مكانها.

ذات يوم بعد الانتهاء من المحاضرات، كانت تنتظر سيارتها قرب باب الجامعة. ولاحظت أن موديل سيارتها الـB.M.W قد تغيّر، فقرّرت الحصول على سيارة جديدة، فحدّثت نفسها:

- من مين تطلبين يا ليال؟ ماني بقايلة لأبوي لأني ما أبي منه شي، بروح لجدي لو قال لي روحي لأبوكي ماني رايحة الجامعة لين ما السيارة تتغيّر.

هكذا كان الغضب يسيطر على أبسط أمور حياتها.

فور وصولها إلى المنزل، توجّهت إلى جناح جدّها، سلّمت عليه، وقالت:

- يا جدّي سيارتي صارت قديمة. وأنا بصراحة ابي أغيّرها.

ردّ بصوت واهن ضعيف:

- سمّي حبيبتي. بس أنا تعبان قولي لعمّك تركي. أنا مكلفه انه يجيبلك أي شي تبينه.

هنا تأكّدت بالدليل القاطع وباعتراف جدّها أن كل شيء أصبح تحت تصرّف تركي. وتأكّدت أيضاً أن خطواتها لامتلاك القوّة تمضي على الدرب الصحيح. انتظرت في غرفتها وقالت لعامل السنترال أن يبلغها بوصول السيّد تركي عندما يعود. وحين وصل أمهلته ساعتين ونصف الساعة كي يستريح ويتناول طعام الغداء. ثم ذهبت إلى منزله. طلبت من الخادم أن يسأله هل بإمكانها أن تراه. وما هي إلاّ ثوانٍ حتى عاد الخادم مبتسماً. دخلت وجلست بجوار السيّد تركي. وللحال قال لها:

- في شي ثاني تبين تاخذين رأيي فيه؟

- لا يا عمّي. أنا هالمرة ابي اطلب طلب.

- أيوه بدينا طلبات. وليه ما طلبتي من أبوك؟

- جدّي قال اقول لك أنت مو أبوي!

- وش الطلب؟

- انا سيارتي تغيّر شكلها.

- يعني تبين الجديدة. طيب ما في مشكلة.

- سيارتي كانت مناسبة للمدرسة. لكن الحين أنا في الجامعة وإدارة أعمال. يعني المظهر مهمّ. بصراحة أنا نفسي في اللي أكبر منها. كثير عليّ؟

- هو كثير. لكن عشان أنتي ذكية وعاجبني مخّك بجيبلك إياها بس بشرط منتي مغيّرتها طوال فترة الجامعة.

- شكراً يا عمّي. وأوعدك ما حطلب أغيرها.

غادرت ليال. وفي داخلها نُصبت محكمة، وراحت تدين نفسها إذ شعرت أنها على وشك إدمان الكذب والنفاق. ومرّت بغرفة والدتها فوجدتها غارقة في نوم عميق. جلست في أسفل سريرها، واحتضنت قدميها وراحت تبكي:

- يا ماما أنا ابي أكون مثل عمّي تركي! معقول؟ تركي اللي كنا كلنا نبعد عنه ونتجنّبه صار هو مثلي الأعلى. ليه يا أمي؟ ما كنت أتخيل أن في يوم من الأيام بصير كذا. الظاهر أن الحياة مو سهلة مثل ما كنتي تقولين لنا.

(٢٣)

اعتادت ليال في وقت الفراغ، بين محاضرة وأخرى، الذهاب إلى كافيتريا الجامعة حتى تشرب فنجاناً من القهوة، وتراجع سريعاً رؤوس الأقلام التي دوّنتها خلال المحاضرة. ذات مرة أوقفتها إحدى الطالبات قرب باب الكافيتيريا:

- أنا أشوفك في الجامعة صار لي سنتين. وبصراحة ستايلك مرة عاجبني وحاسّة إنك بنت مرة «كول». بس ما عمري شفتك مع أحد! فحبّيت إني أعلمك إن شلّتنا كل يوم في نفس الوقت تتجمع هنا. فلو حابّة اتفضلي حيّاك اللّه.

- آسفة لكن ما عندي وقت. وعموماً شكراً على الدعوة.

لم يكن هذا العرض هو الأول إذ سبق أن أتاها العرض نفسه من زميلات لها في الجامعة، أو من

زملائها في العمل من أجل التعرّف إليها. فقد أصبح اسمها كالرمز، يختلف معناه باختلاف المكان الذي يُذكر فيه. فمثلاً في الشركة كان يعني تلك الشابّة الفاتنة ذات الجسم الممشوق الذي تظهر مفاتنه حتى وهي مرتدية العباءة السوداء. وكان يعني أيضاً صاحبة الشعر المتموّج الكثيف الذي يتدلى إلى وسط ظهرها كأنه ستار مسرح ينهي مشهداً رائعاً لحسنها.

أما في الجامعة فهي الحاصلة بجدارة على لقب «البنت الكوول». وكثيراً ما كان جمالها الطبيعي موضوع رهان بين زميلاتها. ففئة منهن تجزم أن سمرة بشرتها الذهبية اللامعة هي النتيجة الطبيعية لاستخدام مستحضرات تجميل معيّنة. وفئة أخرى تؤكّد أن عينيها المكحلتين الواسعتين تبدوان جذابتين ومشرقتين لاستعمالها نوعاً معيناً من الكحل لا يذوب أو يتلاشى خلال النهار. وراج بينهن أن شفتيها الورديّتين الممتلئتين لا بدّ أن تكونا قد أخضِعتا للتكبير. لكن هذه الأقاويل بقيت أقرب إلى التخمينات منها إلى الواقع. فاسمرار بشرتها ناجم عن كثرة تعرّضها لأشعة الشمس يومياً أثناء ركوب الخيل، وكثافة رموشها توهم الناظر بالإفراط في استخدام الكحل. أمّا شفتاها فقد ورثتهما من والدتها.

لم يخف أساتذتها في الجامعة تقديرهم لها

وإعجابهم بها. فقد كانت مثابرة ومجتهدة ومصرّة على تلقّف كل معلومة جديدة. ليس هذا فحسب بل كانت في بعض الأحيان تأتي بمعلومات من بنات أفكارها فتبهرهم بها. لذا كانوا ينظرون اليها كسيّدة أعمال من طراز مختلف لم يعهدوه من قبل. فقد كانت حازمة، عارفة ماذا تريد كي تبلغ الهدف من غير أن تتنازل أو تتقاعس. عدا أن المزاح والدلع ليسا من سماتها. حتى التقاليد والعادات لا تستوقفها. فالتفاصيل التي من شأنها أن تعوق وصولها إلى غايتها لا تعبأ بها، بل ليست موجودة في قاموسها. فمثلاً كانت تتذمّر وتمتعض وتعترض عندما تسمع أحداً يردّد:

- عيب ما يصير تقعدي مع رجال لحالك.

أو:

- تقاليدنا ما تسمح أنك تتابعي العمّال في المصانع.

أو:

- ما يصير بنت في سنّك تتأخّر لين الفجر عشان شغل.

فأقوال كهذه، في رأيها، سخيفة، تطلقها عقول متحجّرة.

على مدار النهار، كانت تحتكم إلى المنطق. فلا

تسمح لأحد أو لأي شيء أن يداعب خيالها. كانت تفضّل أن تطأ قدماها الأرض في كل خطوة تخطوها. أما في المساء، عند عودتها إلي المنزل، فكانت هواجسها وأفكارها تمضي بها إلى دنيا الخيال حيث يمكنها أن تلتقي شقيقتها المتوفاة، فتبنيان معاً عالمهما الذي لم يتسنَّ لهما بناؤه في الواقع. فمنال ما زالت تمثل الجزء الأكبر من حياتها، كأنها لم تزل حيّة أو رحلت إلى مكان آخر. حتى إن ليال عندما سمعت عن موقع الـ«Facebook» من فتيات الجامعة، أنشأت فيه صفحة باسم منال وزوّدتها بالصور والمعلومات الشخصية، وأحبّ الأشياء إليها من موسيقى وملابس ونجوم. كذلك أنشأت لنفسها صفحة أخرى وراحت تتبادل وإياها التعليقات والصور والإهداءات.

كانت ليال تتمتّع بذوق خاص في معظم المجالات. فالموسيقى العربية لم تستهوِها. لكنها كثيراً ما أبدت انجذابها إلى أغنية عبد المجيد عبد اللّه «استكثرك» التي كانت كلما سمعتها ردّدت «أكيد خالد الفيصل كتبها عليّ»، وبخاصة المقطع الذي يقول «استكثرك وقتي عليّ وغدا بك، عادت زماني كل ما طاب هوّن». كذلك أحبّت أغنية سمعتها وهي تشاهد فيلم «الشبح» برغم أنها لم تكن معجبة بالسينما المصرية. لكن قصّة الفيلم

لفتتها. كانت كل كلمة في هذه الأغنية تنقر على وتر من أوتار قصّتها، وتحديداً: «سألت نفسي كتير مرستش يوم على برّ... أنا اللي فيّ الخير ولا اللي فيّ الشرّ».

أما الموسيقى التي تطرب لها وتحرص على الاستماع إليها دوماً، فهي موسيقى الـ«Future Trance» وكان فيلم «صانع الأوهام» «THE ILLUSIONIST»، للمبدع إدوارد نورتن، بحسب ما كانت تطلق عليه، فيلمها الذي لم يكد يمرّ أسبوع من دون أن تشاهده مرة واحدة على الأقلّ، فضلاً عن ترسانة الـ«DVD» التي تزدحم بها مكتبة أسطواناتها. ولطالما تمنّت لو لديها القدرة نفسها التي تمتّع بها بطل ذاك الفيلم، كي تعيد أختها إلى الحياة لتخبرها ما حدث لها تلك الليلة، تماماً مثلما فعل البطل، عندما استحضر إلى خشبة المسرح، روح حبيبته المقتولة، فكشفت له اسم قاتلها.

كان الجدول الأسبوعي لليال ممتلئاً على الدوام. اعتادت أن تخصّص بعض الوقت في عطلة نهاية الأسبوع لتنفيذ أمور لا تقوم بها في بقية الأيام. فاقترابها من تركي قادها إلى مزاولة هواياته نفسها. فبدأت تنضمّ إليه لممارسة الرماية في إحدى حدائق المنزل البعيدة. كانت هذه الهواية متنفّساً ضرورياً عما في داخلها من غضب وتوتّر. فصوت الطلقات والتصويب نحو الهدف وإصابته

تدفعها إلى الاسترخاء، كأنها كانت تثبت لنفسها أن بلوغ الهدف، أيّ هدف، ليس بالأمر الصعب حتى لو كان يطير في الفضاء. فبضغطة واحدة على الزناد يسقط الهدف على مرمى خطوات قليلة. عندما تأكّد لتركي إجادتها الرمي والتعامل مع السلاح، أهدى اليها مسدساً صغيراً موشّى بالزخارف ومطعّماً بالفضّة لتشجيعها على الاستمرار في ممارسة الرماية. وكانت تلك المرّة الأولى التي يهدي فيها تركي شيئاً إلى أحد أفراد العائلة غير جاسر. كانت جاذبية ليال وحدّة ذكائها تعنيان الكثير لتركي الذي بدأ ميله إليها يزداد يوماً بعد يوم، وإعجابه بها ينطوي على أكثر من علامة استفهام. فشخصيّته القوية كانت غالباً تقوده إلى نيل ما يريد. فلديه حلّ لكل عقدة، ومفتاح لكل باب مغلق.

ذات يوم، كانت ليال عائدة بسيّارتها من الجامعة إلى المنزل. في الطريق راحت زمرة من الشبّان تلاحقها، وأخذ بعضهم يسمعها كلمات معسولة وعبارات غزلية، لكنها لم تلتفت أو تهتمّ. وإذا بأحدهم يرفع ورقة بيضاء كبيرة عليها رقم جوّاله. استغربت وقاحة هؤلاء الشبّان وجرأتهم، وكادت تتطوّر الحال إلى ما لا تُحمد عقباه لو لم يسعفها الحظّ. فقد صودف في تلك الأثناء، مرور تركي بسيارته على الطريق نفسه،

وهاله المشهد قبل أن يكتشف أن ليال هي المستهدفة.
وما إن رآها مضطربة، والسائق يكاد يفقد السيطرة على قيادة السيارة، حتى أمر سائقه باعتراض طريق الشبّان العابثين، ثم كالوحش انقضّ عليهم بوابل من الشتائم وهددهم بالقتل إن حاولوا مضايقتها مرة ثانية. فخافوا واعتذروا، فارتسمت على وجه ليال ابتسامة تبطن الشكر والعرفان، ولوّحت له وانطلقت.

(٢٤)

بدأت صحّة عادل تنحو منحىً خطراً. وظهرت عليه مؤشّرات تبدو عادة على المرضى الذين هم على وشك الفراق. كان السيّد أحمد يرافقه ثانية فثانية، وكثيراً ما تمنّى على الأطباء أن يسمحوا له بالسفر إلى الخارج ليتلقّى علاجاً أفضل. لكنهم أجمعوا على أن سفره بالطائرة ليس ممكناً، وهو في مثل هذا الوضع الدقيق جداً.

بعد صراع مع المرض لم يدم طويلاً، فارق السيّد عادل الحياة. رحل قبل أن يشفي غليل ليال. فجنّ جنونها ورفضت أن تقف كباقي أفراد العائلة لتلقّي التعازي. لزمت غرفتها ولم تفتح بابها إلا لحميدة وأمّها. وفي ثالث أيام التعازي، دخلت عليها حميدة:

- ربنا يهديكي يا بنتي. انزلي. أبوكي وأهلك كلهم في نص هدومهم من كلام الناس. أنا عارفة إن

مش سهل عليكي تحضري عزا. لكن ده واجب لازم تعمليه.

حاولت ليال أن تتماسك وقالت بصوت يشوبه الانفعال:

- أيش أعمل يا دادة؟ هو ارتاح لكن أنا مين بيريحني؟ كان عندي أمل أنه يطيب وياخذ حق أختي، ويموت بعدها بس يريحني وبعدين يرتاح. لكن خلاص راح، حتى من غير ما أشوفه. كان نفسي أقوله يسلّم لي على منال.

(٢٥)

في ذلك الحين، وصل بسّام والسيّدة سارة. واستمر تقبّل التعازي عشرة أيام لكثرة الذين توافدوا إلى المنزل. بعدما هزّ هذا الإعصار جميع أفراد عائلة حمد، عادت السكينة، لكنه لم يمرّ من دون أن يخلّف وراءه آثاراً وعلامات. فكما خسرت ليال بفقدان جدّها سنداً حنوناً، خسر أحمد سنداً عاطفياً ومعنويّاً كبيراً، وانعكس ذلك سلباً على حالته النفسية التي بدأت تتدهور من سيئ إلى أسوأ. حتى عندما أخبره محامي العائلة أن هنالك وديعة وأوراقاً خاصة أوصى والده بألاّ يتسلّمها أحد سواه، لم يبالِ. فقد شاء العزلة التامّة في جناح الضيوف. لم يكن أحد يعلم كيف يقضي وقته أو ماذا يفعل. بات في عالم آخر. عالم يقيم فيه وحده.

في إحدى الليالي، قبيل أذان الفجر، استيقظ كل مَنْ في المنزل على أصوات ارتطام أشياء بالأرض وتحطّم أوانٍ، كأن زلزالاً ضرب الطابق السفلي. أسرع

الخدم وحميدة إلى حيث مصدر الصوت، واستلّت ليال مسدسها ولحقت بهم، وليس في بالها إلاّ أن الشخص نفسه الذي سرق حياة أختها عاد ليسرق منزلها. عندما وصلوا إلى المكان لم يجرؤ أحد على التقدّم إذ كان مصدر ذاك الصوت غرفة السيّد أحمد. لكن ليال لم تتوقّف، فخوفها على أبيها كان أقوى من غضبها منه. فتحت الباب فرأت تماثيل مهشّمة فاستوقفها واحد منها لم يتحطّم كلياً، ظهرت منه قطعة تحمل شيئاً من ملامح منال. اتّجهت نحوها مذهولةً، انحنت كي تلتقطها وإذا بالسيّد أحمد يصرخ:

- لا تلمسين شي. خلّيني لحالي.

- هذه عيون منال! أنت من متى تنحت؟

- إيه هذه عيونها بس وجهها غير. تعبت أنحت تماثيل لها وكل واحد يطلع وجهها فيه حزين، نفسي أشوفها مثل ما كانت.

اختلفت نظرة ليال إلى والدها في تلك الليلة. لكنّها كتمت مشاعرها. فهي لم تنسَ تخاذله وهروبه من المواجهة. في تلك اللحظات، رأته متهالكاً مترنّحاً فأشفقت عليه. الشفقة في موقف كهذا تشي بأن هنالك طرفاً في حال لا يُحسد عليها، وهو السيّد أحمد، وطرفاً آخر في حال مريحة أو على الأقلّ أفضل، وهو ليال.

(٢٦)

كان بسّام يصّر يومياً على أن يلتقي ليال. وهي لم تكن ترفض لكن أعذارها لم تتوقّف. فقرر أن يذهب إلى منزلها وينتظرها حتى يتمكّن من رؤيتها والتحدّث إليها. كان قلقاً جداً من تصرّفاتها، خصوصاً بعدما علم باقترابها شيئاً فشيئاً من تركي. عندما رأى سيارتها مُقبلة، اتجه نحوها. وما إن ترجّلت حتى عاتبها:

- كل هذا شغل. يعني معقولة ما عندك ولا ساعة نتقابل فيها؟

- على حطّة يدك من الجامعة للشركة للبيت، وش أسوّي؟

- كيف يعني وش تسوّين، أنتي تشتغلين في الشركة غصب؟ أكيد لا! تقدرين تستأذنين بدري شوي ولاّ أنتي ما تبين تزعلين العم تركي؟ على فكرة أنا عرفت من جاسر أنك ما تروحين الشركة أصلاً.

- أكيد ما أبي أزعله، ليه أنت أتربيت أنك تزعّل اللي اكبر منك؟ وبعدين متى جا جاسر، ولاّ أقول لك وش فرق! يجي وقت ما يجي أنا وش دخلني فيه.

- ليال أنتي صرتي حرمة مو بنت صغيرة. يعني طلعاتك الكثيرة واستهتارك حتى في كلامك وتأخيرك في شركة كلها رجال مو شي مضبوط. لازم تنتبهين لنفسك ولسمعتك أكثر من كذا.

- أنا ما أسوّي شيء غلط! أدرس وأتدرب في شركتي، حلالي ومن حقّي أني أراعيه. مو ذنبي إنكم مكتفين باللي تاخذونه كل أول شهر بدون ما تسألون عن حقّكم. أنا غيركم. أنا واقفة على حلالي عشان لو بكرة جاه أحد وقال لي مالك شي، أعرف أوقفه عند حدّه.

- أنتي مرة اتغيّرتي يا ليال. مو أنتي نفس الشخص اللي شفته آخر مرة. أنتي وحده ثانية.

- ولو شفتني بكرا حتلاقيني وحده غير اللي شفتها اليوم.

- طيّب أبوك لهالدرجة هاين عليك؟ على الأقل اهتمي فيه شوي، ولو نص اهتمامك بعم تركي.

- اللي بيني وبين أبوي يخصّنا لحالنا. أرجوك لا تتدخل فيه.

- آسف يا بنت خالي، بس على علمي أني أقرب واحد لك.

- الحكي سهل. لكن الفعل صعب يا ولد عمّتي. استأذنك. أنا تعبانة ولازم ارتاح.

صعدت ليال إلى غرفتها وظلّت تراقب بسّام من نافذتها حتى توارى. وأخذت تحدّث نفسها:

- يا ليتك فعلاً وقفت جنبي، يا ليتك كنت موجود على الأقل كنت فسّرت لي أشياء كثيرة ماني لاقية لها معنى. لكن للأسف أنا ماشية في طريق وعارفة إنه صعب.

حلّ الليل. استلقتْ على فراشها سارحة في الخبر الذي تلقّته، وهو وصول جاسر من السفر. بدأت الوساوس تتسرّب إليها:

- أكيد الحين عم تركي حينسى كل شي وعدني فيه. طبعاً حبيب قلبه وصل، ويا ترى هو جاي للعزا ولا جاي يقعد؟ لو بيقعد مصيبة سودا. ولو بيروح ممكن أتحمّله هاليومين.

وتوقّفت عن متابعة عرض الهواجس عندما دخلت عليها حميدة:

- يا بنتي سيبي شعرك في حاله. كل ما أشوفك

ألاقيكي عمّالة تلفي وتشدّي فيه كفاية بقى. مالك فيه إيه؟

- ولا شي يا دادة. بس بسّام زعلان مني عشان ما كان عندي وقت أشوفه.

- وليه ما كنش عندك وقت؟

- لأن كان عندي دراسة وتسليم مشاريع في الجامعة.

- مشاريع؟ ومين اللي كانت كل يوم بتركب خيل ٣ ساعات.

- بصراحة ما كنت ابي أشوفه وخلاص. يا سلام! هو جاي عشان العزا مو عشاني وهو أنا لازم أشوفه، وقت ما هو يبغى! لا معليش وين كان يوم كنت أنا محتاجته؟

- آه بتعاقبيه يعني؟

- ما أعرف هو أنا بعاقبه ولاّ أعاقب نفسي. عموماً سكّري الموضوع. تصبحي على خير.

هكذا أنهت ليال حواراً لم تكن ترغب في البدء به، لأنها تعلم أن حميدة لن تقتنع بكل أعذارها وحججها، وستحاول أن تخاطب عقلها وعاطفتها راجيةً أن تعود تلك البنت التي ربّتها.

في صباح اليوم التالي، لم تستيقظ ليال في الموعد المعتاد. تركت لحميدة رسالة كتبت لها فيها أنها لن تذهب إلى الجامعة بل إلى الشركة مباشرة. أيقظتها حميدة الساعة العاشرة والنصف بدلاً من الثامنة والنصف. نهضت مُسرعة، ارتدت عباءتها، وانطلقت. في الطريق، كان الأمر الوحيد الذي يسيطر على تفكيرها هو وصول جاسر، وكيف ستتعامل معه، وكيف سيكون الوضع مع رجوعه؟ وكيف أصبح شكله؟ وهل بات محترماً أو لم يزل سخيفاً؟ أسئلة كثيرة راودتها حتى وصلت إلى الشركة. اتجهت إلى المصعد الخاص بالسيّد تركي. بلغت الطابق الخامس وهي تمنّي نفسها بألا ترى جاسر الذي حتماً سيشاركها في ما وصلت إليه. فتحت باب المكتب وإذا بشاب يجلس في مقعد المُساعد، فسألته:

- من أنت؟

أجاب من غير أن ينظر إليها منبهراً على غرار معظم الرجال عندما يلتقونها أو يحادثونها، مأخوذين بجمالها الآسر:

- عبد اللّه، المساعد الجديد لرئيس مجلس الإدارة. السؤال المفروض يكون مين أنتي؟

لم تأبه. أكملت طريقها وفتحت باب السيّد تركي، وهو يهرول خلفها ويقول:

- لو سمحتي لازم تنتظري.

دخلت فرأت السيّد تركي مبتسماً. رحّب بها كالعادة موضحاً لمساعده أنها ابنة أخيه. هدأت. وسرعان ما تزعزع صفاؤها عندما قال:

- شوفي من اللي جا يا ليال. ولد عمك جاسر.

استدارت نحو إصبع السيّد تركي، فرأت جاسر جالساً على الأريكة المجاورة لمكتبه. ابتسم وهبّ واقفاً. لم تصدّق أن ذلك الشاب النحيل ذا الكتفين الصغيرتين والوجه الطويل والحاجبين الكثيفين، أصبح رجلاً، وقد كست ذقنه لحية خفيفة وبدا حاجباه اللذان لطالما كانا مصدر إزعاج لكل من يراهما، متناسقين مع سائر ملامحه الرجولية.

قال بصوت رقيق وهو يصافحها:

- ما شاء اللّه عليك، صايره زي القمر. كيفك ليال؟

فردّت ولا تزال يدها في يده:

- شكراً على المجاملة. وحمدالله على السلامة.

ثم نظرت إلى السيّد تركي، وقالت:

- طيّب أخليكم وأروح مكتبي.

- تخلّينا! ليه أنتي غريبة؟ اقعدي بس اشربي القهوة وبعدين روحي.

احتستْ قهوتها وهي تستمع إلى جاسر وقصصه عن صعوبة الحياة في الخارج، وكيف أنه كان في قمّة السعادة عندما أتمّ الدراسة وقرّر الرجوع إلى الوطن.

مع انتهاء القهوة كانت ليال قد حصلت على الإجابات التي تريدها. لم تكن كلّها على هواها. وقد بدت واثقة بأنها ما زالت ممسكة بزمام الأمور. في طريقها إلى الخارج لاحظت المساعد الجديد وهو يختلس النظر إليها. لكن ردّ عينيها كان حادّاً كالعادة، كأنها تنصب حول نفسها سياجاً لا يمكن أحداً أن ينفذ منه إليها.

(٢٧)

لم ييأس بسّام من محاولة إعادة علاقته بليال إلى سابق عهدها، فأحبّ أن يلطّف الجو، فبعث اليها برسالة على الجوّال في عطلة نهاية الأسبوع:

- وش رأيك نتسابق بالخيل واللي يكسب يطلب من الثاني أي شي يبيه.

وافقتْ. لم تشأ أن تحرجه. فما زالت تشعر بالذنب لأن معاملتها له آخر مرة تقابلا فيها، لم تكن لائقة. في الموعد المُتفق عليه، اتجهت إلى الإسطبل. وحينما رأت بسّام بادرته بسؤال:

- ها، تركب بسرج ولاّ بدون؟

- كيف بدون. طبعاً بسرج.

- يعني لسه بنستنى لين ما يحطّولك السرج؟

- ليه وأنتي ما حايحطّولك سرج؟

- من يومي وأنا ما أحبّ السرج. لا تقلق. أنا متعوّدة على كذا.

استغرب بسّام ذلك. امتطى فرساً، وفيما ليال تعتلي فرسها، قالت:

- وما فينا من زعل لو كسبتك.

بدأ السباق. وراح الفرسان يتنافسان مسرعين حتى وصلا إلى نقطة النهاية. وكانت الغلبة لليال التي جرّت فرسها وهي تختال بشيء من الزهو. وفي مدخل الإسطبل، قال بسّام:

- حظّك حلو، يلاّ اطلبي.

- يبقى لي عندك طلب، ما في شي معيّن في راسي الحين.

وأخذتهما الأحاديث وهما يتمشّيان في الحديقة. أحبّت ليال أن تغتنم الفرصة وتسأله عن جاسر، فهو قضى معه وقتاً طويلاً خلال العزاء:

- مو أنا شفت ولد عمك جاسر في الشركة.

- كنت متأكد أنك بتشوفينه هناك، أكيد أنه بيشتغل معكم.

- الظاهر كذا. اللي فهمته انه خلّص دراسته ورجعته هذي عشان يستقرّ.

- وأنتي وش رأيك فيه؟

- رأيي في أيش؟ وأنا وش عليّ منه.

- كيف أيش دخلك؟ أكيد أنه بيكون في الشركة أغلب الوقت مع عم تركي. يعني لازم تتعاملين معه بشكل يومي.

- وين المشكلة؟ هو في شغله وأنا في شغلي. أنت اللي وش رأيك فيه؟

- ما قعدت معه كثير. لكن ما أحسّ أنه تغيّر. لسه غروره ذابحه واستهتاره واضح. لكن يمكن يكون أهدى من الأول شوي.

- هو من جهة أهدى فهو أهدى. عموماً أنا ما عندي مشكلة معه إلى الآن، لكن لو حاول يتدخل في شغلي أو يحلّ محلي في أي شي، مسكين مِن اللي بيشوفه.

(٢٨)

لم تمرّ عطلة نهاية الأسبوع سريعة على عبد اللّه المساعد الجديد للسيّد تركي. فكان متلّهفاً للاستفسار عن ليال. لم يكن قد كوّن بعدُ صداقات تمكّنه من معرفة إجابات عن أسئلته، فقرّر أن يعرف منها هي شخصيّاً. واقتنص المناسبة عندما سألته لدى وصولها الشركة:

- العم تركي مشغول؟

- إيه عنده اجتماع، عموماً أنا آسف على سوء التفاهم اللي صار ذاك اليوم. لكن اللي ما يعرفك يجهلك.

- مو مشكلة ما صار إلاّ الخير. عموماً أنا بروح مكتبي ولين خلص بلّغه لو سمحت.

- هو ما حيتأخّر اتفضّلي اشربي قهوة.

- لا شكراً. ما اشرب قهوتي إلاّ في مكتبي أو عند عمّي.

وعندما استدارت لتغادر، فوجئت بجاسر رافعاً حاجبيه كأنه يبدي عدم رضاه عمّا سمعه:

- في مشكلة يا ليال؟

- ابداً. بس كنت ابي أقابل عم تركي لكن هو في اجتماع.

في نهاية اليوم، التقى جاسر وليال عند باب الشركة:

- تعالي أوصلك دام طريقنا واحد؟

- لا معليش أفضّل أروح بسيارتي.

- صدّقيني بيجي اليوم اللي بتتحايلين عليّ فيه أني أوصلك، وأنا بقول لا.

قال ذلك وفي عينيه نظرة تحدٍّ ساخرة.

ردّت بدلال وذكاء:

- يعني لو قلت لك وصلني بتقول لي لا؟

- لأ طبعاً، كنت أمزح.

- أجل لا عاد تقول حكي ما أنت قدّه.

ركبت سيارتها وهو صامت يرمقها بنظرات هي مزيج من إعجاب بذكائها وغيظ من الفخّ الذي نصبته له، فوقع فيه بكل بساطة. وصلت إلى المنزل، فإذا بحميدة تخبرها أن الطبيب آتٍ بعد وقت قصير لمعاينة والدتها. فاستفسرت:

- ليه يا دادة؟ ماما فيها شي؟

- لا يا بنتي زيادة اطمئنان، اللّه يعينها حتى لو تعبانة هنعرف أزاي، وهي مبتنطأش بكلمة واحدة.

قصدت ليال والدتها، قبّلت يديها واحتضنتها:

- ماما كلّميني. احكي معي. أنا ليال. على الأقلّ ردّي عليّ. أنا محتاجتك جنبي.

لم تجب الأمّ. كأنها في دنيا بعيدة. تسمع ولا تسمع. ترى ولا ترى، مقيمة في صمتها الأليف. واستأنفت ليال توسّلها:

- طيّب أنا ما وحشتك. على الأقلّ خلّيني اسمع صوتك. أنتي عارفة إن بابا كمان صار مثلك! قاعد لحاله في جناح الضيوف تحت. بس ينحت تماثيل ويكسرها ومو راضي يحكي مع أحد. يعني انتو الاثنين تركتوني لحالي. ما في أحد منكم سامعني. تعبت يا ماما. ما صرت أعرف الصحّ من الخطأ. ولا أنا عارفة ليه أنا عايشة ولا ليه الناس كلهم عايشين؟

وجاء ردّ الأمّ دموعاً صامتة.

أتى الطبيب وأخبر ليال بحالة والدتها. ولفتها إلى أن وضعها النفسيّ مرشّح للتدهور، وأن إدخالها مستشفى نفسياً لا بدّ منه. رفضت ووعدت الطبيب بأنها ستدرس وأمّها الأمر. وقبل مغادرته، قالت له:

- دكتور بابا كمان من وقت ما توفّى جدّي وهو حابس نفسه تحت وما يبي يكلّم أحد. ممكن تدخل تكشف عليه وتطمّني؟

وقف الطبيب أمام الجناح، وراح يطرق الباب قرابة عشر دقائق، ولا حياة لمن تنادي. فطلب من ليال أن تدخل وتعلم والدها أنه يريد مقابلته. دخلت. وردّ أبوها:

- ما ابي أحد خلوني لحالي.

فخرجت واعتذرت إلى الطبيب وودّعته.

(٢٩)

رأت ليال شقيقتها في منامها مجدّداً. لم تستطع أن تفهم معنى الحلم. فور استيقاظها اتّصلت بحميدة كي تأتي بسرعة. جاءت حميدة متوتّرة:

- خير انشاللّه؟ لسه بدري على معاد صحيانك.

- حلمت بمنال يا دادة. لكن ماني فاهمة شي من اللي شفته.

- قولي اللّهم اجعله خير. احكيلي.

- كأننا كنا في بيت ما اعرفه. بس في نفس الوقت المفروض أنه بيتنا. ومنال كانت قاعدة على كرسي في مجلس كبير. وكأنها ملكة، ما كان في أحد غير أنا وأنتي وبسّام. كنا قاعدين نناظرها. وبعدين منال نادتني وأعطتني كيس كبير. ولما فتحته لقيته رز أبيض. حاولت أدخّل يدي في الكيس، عشان أشوف يمكن في شي ثاني بس يدي ما جابت آخره. مع أن الكيس شكله مو هالكبر!

- ما شاء اللّه. الرز في الحلم يعني خير ورزق. في رزق كبير هيجيلك. ولازم تطلعي منه صدقة كبيرة.

- طيّب ليه ما كانت تحكي؟

- مش لازم كل ما تشوفيها في حلم تتكلم. المهم إنها كانت كويّسة.

وصدق توقّع حميدة. فبعد بضعة أيام، أتمّت ليال صفقة كبيرة أشرفت هي على مواكبتها وتنفيذها. وكان المكسب كبيراً حتى إن السيّد تركي فاجأها في الشركة:

- ما كنت أتصور أنك بتقدرين تخلّصين الصفقة هذي لحالك، وبالسعر هذا.

- شكراً يا عمّي. تلميذتك.

- عشان كذا أنا بشجعك. نسبتك كانت ٢,٥٪ لكن أنا بعطيك ٧٪ يعني تقريباً ٥٠٠ ألف ريال. مبسوطة؟

- هذا كثير يا عمّي.

وضع يديه على وجهها، وقال بنبرة معبّرة:

- أنتي تستحقّين أكثر وبكرا تشوفين.

أحسّت ليال بارتياب من لمسة عمّها. وبرغم ذلك حاولت أن تظهر عكس ما أحسّته:

- شكراً يا عمّي.

لم تكن تريد أن تقرّ بما هي متيقّنة منه. فتودّد السيّد

تركي لها ولمساته ونظراته، كانت تترجم إعجاب رجل بأنثى وليس إعجاب عمّ بإحدى صغيرات عائلته. وقد اجتاحتها حيرة عاصفة جعلتها تتريّث قبل اتخاذ أيّ موقف. فإذا أقرّ بصحّة ما تشعر به، فعندئذ لا بد أن يكون ردّ فعلها الابتعاد عنه وتوقيفه عند حدّه. أمر كهذا يستدعي مغادرتها الشركة. وإذا استمرّت في التغاضي والتجاهل فستتمكن من مواصلة مشوارها.

فور وصولها إلى المكتب، اتّصلت بحميدة، وزفّت إليها أن حلمها تحقّق، وأنها ستتصدّق بمبلغ كبير لدى تسلّم حصّتها من الصفقة، بناءً على نصيحتها. عقب انتهاء العمل، زارت المركز التجاري واشترت ثلاث هدايا، الأولى لوالدتها، والثانية لبسّام، والثالثة لحميدة. وحينما وصلت إلى المنزل، اتّجهت إلى غرفة أمّها:

- ماما أنا حلمت بمنال. أعطتني رز. ودادة قالت إنه رزق. وفعلاً يا ماما أنهيت صفقة للشركة وأخذت نسبتي. عشان كذا جبتلك هدية. شوفي، أيش رأيك بالسلسال هذا؟

لم تلتفت الأم. أخرجت ليال السلسال من العلبة وألبستها إيّاه وقبّلت جبينها، وتركتها وحدها. وعندما التقت حميدة قدّمت لها هديّتها، وكانت سواراً من الذهب الخالص. شكرتها حميدة وسألتها:

- مالك يا ليال؟ شكلك مش مبسوطة.

فروت ما حدث مع والدتها. وأبدت حزناً شديداً إذ إنها بدأت تفقد الأمل في التواصل معها، خصوصاً أن جميع محاولاتها للتقرّب منها لم تنفع. حاولت حميدة أن تمتصّ غضبها وترفّه عنها متعمّدةً الإشارة إلى هديّة بسّام:

- وإيه بقى الهدية دي؟ بتاعة مين؟

- لبسّام.

- بسّام؟ بمناسبة إيه إن شاء اللّه؟

- لأني شفته في نفس الحلم. يمكن منال نفسها تجيبله هدية.

- والنبي قلبك زي القشطة. مع إني عارفة إن ده مش السبب. أنتي عايزة تصالحيه. ربّنا يطرح فيكي البركة.

(٣٠)

كان موعد الاختبارات النهائية قد اقترب، وشاءت ليال أن تستعدّ الاستعداد الكافي سعياً إلى نيل درجات عالية، فأبلغت السيّد تركي أنها لن تستطيع الحضور يومياً كالمعتاد إلى الشركة. لكنها لن تقصر في أي من المهمّات الموكلة إليها. كأنها بذلك تحذّره من أن يقترح إسناد بعضها إلى شخص آخر، وتحديداً جاسر. لم يعترض. وقد تمنّى لها التوفيق.

ولدى دخول مكتبها، وجدت باقة كبيرة من الورود الحمراء وبطاقة بلا توقيع مطبوعاً عليها «إلى أجمل وأندر وردة شفتها في حياتي». استغربت. وسألت قسم الاستقبال عمن أحضر الباقة. فقالوا إن مندوباً من محلّ الزهور هو الذي أحضرها. تراوحت شكوك ليال بين جاسر وعبد اللّه، مرجّحة أن الأول هو الفاعل. فقرّرت أن تذهب إليه، لكنه لم يكن موجوداً. طلبت من عامل الهاتف أن يتّصل به ويحوّله إليها. ردّ جاسر:

- ألو . . . نعم .

- لسه في أحد يردّ على التليفون ألو . . . نعم؟

- أنتي مين؟

- المفروض أنك تعرف صوتي! ليه كم بنت تكلّمك على جوّالك من رقم الشركة؟

- صادقة أنا غلطان . كيفك يا حلوة . أمري .

- أنت جاي اليوم ولاّ لأ؟

- أنتي وش تبين . . . أجي ولاّ لأ؟

- على راحتك .

- سألتك سؤال ولاّ مستحية تقولين أنك تبيني أجي .

- واستحي ليه . إي أبيك تجي لأن في أشياء في الشغل محتاجينك فيها .

وإذا به يفتح باب مكتبها :

- في أسرع من كذا؟

حانت منه التفاتة إلى باقة الورد وسأل ممتعضاً :

- مين أرسلك هالورد؟

- ما أدري بس الأكيد أنه أحد سخيف .

- لا صدق مين أرسله؟

- واللّه ما أدري . معقول ما تعرف؟

- آه . واضح إنك تحسبين إني أنا اللي أرسلته .

لكن للأسف غلطانة. والواضح أكثر أنه نفسك يكون أنا، عشان كذا كلّمتيني.

وبينما كانت تحاول إخفاء غضبها أجابت بفتور:

- نفسي؟ أنت أكيد تحلم. أنت فاكر أن هذي أول مرة يجيني ورد. أو أنك الوحيد اللي ممكن تعجب فيني. كل اللي في الشركة نفسهم أطالعهم بس مو أحكي معهم.

وللحال أمسك بذراعها وجذبها نحوه:

- اللي يفكّر يناظرك يا ويله.

ولم تكن تفصل بينهما سوى بضعة سنتيمترات. وفيما أنفاسهما تقترب أكثر فأكثر، رنّ هاتف المكتب فانتبها. أسرعت هي إلى الردّ. وعندما أنهت المكالمة، انصرفت بحجّة أن لديها عملاً ملحّاً. وقبل أن تغادر، ذكّرها بأن ما قاله ليس مزاحاً. كانت تلك المرة الأولى التي تشعر فيها بتلك الأحاسيس التي لم تستطع ترجمتها. أحست بأن ناراً أُوقِدت داخلها، ولم تُطفأ.

انتهى المشهد، لكنه لم ينته في مخيّلة ليال التي راحت تفكّر في هذه القشعريرة التي عصفت بكيانها كله، وفي تلك المشاعر الغريبة التي كادت تزيّن صيف أنوثتها بسُحب مقبلة قبل أوانها.

(٣١)

اعتادت ليال رؤية عبده حيث تكون، لكن لحاقه بها إلى الشركة، أثار استغرابها. وقرّرت أن تضع حدّاً لتصرّفاته المريبة التي كادت تصبح أشبه بمهزلة. ذات صباح رأته واقفاً في المدخل الرئيسي للشركة. رفع يده وحنى رأسه محيّياً إيّاها. فاقتربت وباغتته:

- خير يا عم عبده، وش جابك هنا؟

- أبداً صار لي ثلاث أسابيع بحاول أقابل السيّد تركي في البيت ومش عارف، فقلت أجي أستناه قدام الشركة عشان أكلمه وهو داخل.

- ليه خير. الموضوع مهمّ لهالدرجة؟

- بصراحة أيوه، والحمد للّه إني شفتك الأول. أنا هسافر مع أولادي لدبي. جالهم عقود عمل ولازم أروح معاهم. وبحلّفك باللّه انك تنتبهي لنفسك وما تأمني لكل اللي حواليك حتى لو من لحمك ودمك.

دُهشت من هذا التحذير. وتعمّدت أن تبدو لامبالية، فأخذته على محمل المزاح. لكنها في قرارة نفسها، لم تكن كذلك. أحبّت أن تعرف المزيد لعلّ هنالك مستوراً تجهله ويبغي هذا العجوز إطلاعها عليه.

سألته:

- ما فهمت؟ مين اللي من لحمي ودمي اللي انتبه منه وليه؟

- مش كل الناس اللي بتظهره هو اللي جواها. الدنيا فيها حاجات كتير وحشة. وأنت أبرأ من انك تفهميهم.

- أيش قصدك؟ لا تعصّبني؟

- أنا مقدرش أتكلم أكثر من كدا.

في هذه الأثناء، وصل تركي. وعندما رأى عبده سأله هو أيضاً:

- خير وش جابك هنا؟

- أنا آسف. لكن صار لي ثلاث أسابيع بحاول أقابلك في البيت ومش عارف، والموضوع مهمّ.

- وش الموضوع المهمّ؟ أيش كنت قاعد تقول لليال؟

- كنت بحكي لها اللي أنا جاي عشانه. بصراحة

أولادي جاهم عقود عمل في دبي. وأنا هروح معاهم، ومحبتش أمشي بدون إذنك.

- إذني؟ لأ طبعاً عشان تأخذ مكافأتك، عموماً بالسلامة. مرّ على البيت. بيكون في ظرف باسمك.

- كتَّر خيرك.

التفت عبده إلى ليال، ولم تحجب عيناه ما يغلي في صدره، وغادر منكسراً خائباً.

خلال النهار، كانت ليال منهمكة بالعمل، عندما وصلتها رسالة من بسّام عبر جوّالها يدعوها فيها إلى عشاء يقام خلال أيام، ويجمع أفراد الأسرة في منزل السيّدة سارة. وأشار إلى أنه سيغضب كثيراً إنْ لم تأتِ. وأبلغها أن والدته ستحاول إقناع والديها بالحضور. فردّت بالموافقة برغم تأكّدها أن مساعي عمّتها ستبوء بالفشل.

صباح اليوم التالي، بدأت الاختبارات النهائية في الجامعة. وما إن انتهت ليال من أحدها حتى اتّصلت بالسائق، طالبةً انتظارها قرب مدخل الجامعة، فأخبرها أن السيارة معطّلة وهو واقف بجوارها في الشارع، وأنه اتّصل بالشركة فلم يجد سوى سائق السيّد تركي. وللحال اتّصلت هي بتركي:

- أهلين يا عمّي. معليش ترسل لي سيارتك على الجامعة لأن سيارتي تعطلت؟

- إيه أكيد بس السوّاق يعرف وين؟

- ما أتوقع، الحين بكلمه.

وعندما تناهى إليها صوت جاسر مقاطعاً: «أنا بروح أجيبها»، أسرعت إلى القول:

- لا يا عمّي خلّي جاسر مرتاح.

- خلاص جاسر طلع. أول ما توصلين البيت كلّميني عشان اطّمن عليك.

وحالما انتهت المكالمة ساورتها مشاعر متضاربة، وقد تنازعها صوتان، الأول يهلّل فرحاً ببادرة جاسر الذي سيأتي لاصطحابها، والثاني يؤنبّها لأنها فَرِحَة لذلك. تسمّرت قرب باب الجامعة وسط مجموعة من البنات. وما هي إلا دقائق معدودة حتى اقتربت الفيراري السوداء المكشوفة نحوها، فسمعت زميلاتها يتبادلن عبارات الإعجاب بالشاب الذي يقود هذه السيارة الفارهة. وآخر تلك العبارات: «مين هذا، وش ذا المملوح، يا حظّها اللي جاي ياخذها». تباهت بأنها هي المحظوظة التي ستجلس بجانب الرجل الوسيم الذي ظلّ في الأيام اللاحقة محطّة ثابتة في أحاديث عدد كبير من الطالبات. بقيت ليال واقفة في مكانها إلى أن رفع جاسر يده داعياً إيّاها.

عندما أغلقت ليال باب السيارة، انطلق جاسر بسرعة مذهلة كأنه في سباق «الفورمولا وان»، فأصدرت الإطارات صوتاً قوياً لفت أنظار الطالبات والمارّة.

لدى العودة، لم يحاول أيّ منهما البدء بالكلام. وحدث أن طارت طرحة ليال، حاولت القبض عليها فلم تستطع. أضحكها ما حصل خصوصاً أن الهواء لبث يقذف بالطرحة إلى أن استقرّت على حافّة الطريق. بدا شعرها رائعاً، وهي تنظر إلى الخلف متابِعةً فصول المشهد، وتزداد روعته كلما لعب به الهواء صعوداً وهبوطاً، وأفرد خصلة منه على جانب من وجهها. أوقف جاسر السيارة، وقال ممازحاً:

- غطّي شعرك. ما عندي استعداد أقتل أحد اليوم.

- طيّب ارجع بالسيارة وانزل جيب لي طرحتي أو سكّر السقف. وأنا ما حخلّي أحد يشوفني.

- الخيار الثاني أفضل.

أغلق سقف السيارة، وقال:

- طيب وش رأيكِ تختارين أغنية نسمعها؟

على الفور، بدأت تبحث في جهاز «I pod»، ولاحظت أن ذوقيهما في الموسيقى متقاربان جداً. وعندما سمع ما اختارته، علّق جاسر:

- غريبة انك تحبّين الـ«Future Trance». قليل من بنات المملكة يفهمونه أصلاً.

- ليه أنت تعرف كل بنات المملكة وش يسمعون؟

- تقريباً إيه.

- أهدى من كذا بس! لكن الجزء اللي أنت ما تعرفه يسمعون أشياء يمكن أنت ما تعرف عنها شي.

- يا ساتر أنتي على طول ردّك جاهز، طيّب يا حلوة بدون عناد اللي تقولينه صحّ. ارتحتي الحين؟

- لا تاخذني على قد عقلي! أنا ما أحب الأسلوب هذا.

وبخفّة مدروسة، تسلّلت أصابعه بين خصلات شعرها. وبصوت هامس رقيق، قال:

- أجل وش تحبّين أعاندك؟

تجمّدت ليال ثوانيَ قبل أن تفيق، وتُبعد يده:

- مو شغلك وش أحب. ناظر قدامك وخلّينا نوصل البيت.

عند وصولها إلى المنزل، ولسوء حظّها، كانت حميدة أوّل من رآها تنزل من سيارة جاسر، فانتظرتها في غرفتها. وعندما رأتها ليال وجدتها على غير عادتها، حزينة وغاضبة. فاندفعت نحوها مستفسرة:

- أيش فيك يا دادة؟ احد زعلك؟

- أنتي جيتي مع مين؟

- أيش قصدك؟

- من غير لفّ ودوران أنتي جيتي مع مين؟

- مع جاسر. أنا عارفة أنه غلط. لكن صار ظرف والسيارة تعطّلت. كلّمت الشركة يرسلولي سيارة. فهو اللي جا. يعني ما هو موعد غرامي.

لم تستطع حميدة حجب غضبها الذي تُرجم بارتفاع صوتها وهي تخاطب ليال، وبارتجاف يديها بل جسمها كله. كانت هذه أول مرة ترى فيها ليال حميدة في حال كهذه. تماماً مثلما كانت هذه أول مرة ترفع فيها حميدة صوتها عليها:

- أول حاجة لما أكلمك تبصيلي. شغل العوج ده أنا مش هاكل منه، أنا ما ربّتكيش كده. ولو أبوكي وأمك تعبانين وأنتي فاكره أن ملكيش كبير تبقي غلطانة يا هانم. لو حصل ظرف زيّ ما بتقولي تكلّمي الشركة ليه أصلاً؟ تكلّميني أنا. وأنا هتصرّف. إنما تكلّمي الشركة بمناسبة إيه؟ اسمعي. أنا بقى لي فترة ساكتة عليكي وعلى تصرفاتك. لكن مكنتش شايفة انك ممكن تضرّي نفسك.

- ما في داعي للأسلوب هذا يا دادة. وانا ماني صغيرة.

- لو كان فعلاً عقلك كبر زيّ جسمك كنتي عمرك ما ركبتي مع راجل في عربية لوحدكم. وكمان شعرك مكشوف! فاكرة نفسك في أمريكا؟

سكتتا. ظنّت ليال أن حميدة توقفّت عن توبيخها، فقامت واتّجهت نحو النافذة. اقتربت حميدة منها، وقالت بلهجة عسكرية صارمة لم تخلُ من تهديد مبطّن:

- اسمعيني كويس. مش حسيبك تضيعي نفسك وسمعتك وأنا بتفرّج. فوقي لنفسك وفكّري قبل ما تخطي خطوة واحدة بدل ما يجي اليوم اللي هتندمي فيه على كل حاجة.

وغادرت حميدة الغرفة غاضبة. أو هكذا شاءت أن توحي لها أنها ليست راضية عن سلوكها، فيما كانت ليال تتأجج غيظاً، لكنها لم تردّ بالمثل، فهي تعرف أن ما صدر عن حميدة نابع من قلب محبّ، وإن قيل بهذه القسوة، وتعرف أيضاً أن حميدة هي الوحيدة التي بقيت إلى جانبها عندما تخلّى الجميع عنها.

فمنذ حادثة وفاة منال، لم يستطع أحد أن يحكي ليال بمثل هذا الأسلوب، أو أن يؤنّبها ويواجهها بأن استهتارها فاق الحدّ وبات غير مقبول. وكي تخرج من الوضع الحرج الذي وجدت نفسها فيه، نزلت إلى الحديقة وراحت تجري حتى وصلت إلى الإسطبل.

وضعت اللجام على أحد أكثر الأحصنة عناداً، وامتطته. ثم انطلقت به. وراحت تضربه بالسوط كي يسرع أكثر فأكثر. فكانت ضرباتها المتتالية تفرغ منها شحنات التوتّر والقهر. وكانت السرعة الجنونية تنسيها ما حدث إذ تجعلها شديدة التركيز والتيقّظ. وقد تعمّدت فعل ذلك آملة أن تراها حميدة كي تُفهمها أن التأنيب وكلامها القاسي هما وراء ما يحصل، وأنها ستكون المسؤولة إن أصابها مكروه. وعندما تراها حميدة ستجري خلفها مولولة، متوسّلة إليها أن تهدأ، فيسود عندئذ الصفاء وتتصالحان. لكن الذي رآها هو عبده الذي بحّ وهو يناديها طالباً اليها التوقّف. أخذ يركض وراءها في أنحاء المضمار، رافعاً يديه لدى قدوم الحصان ثم سرعان ما يفرّ من طريقه خائفاً مرتعباً. ولو لم تزلّ به القدم ويقع أرضاً لاستمرّت ليال في التجوال. فعندما رأته ممسكاً برجله، وسمعته يئن متألماً، ترجّلت عن الحصان وأسرعت إليه:

- عم عبده صار لك شي؟

- أنا مش مهم. أنتي بتجري بالحصان كده ليه. طيب لو مش خايفة على نفسك ارحمي الناس اللي بيحبوكي.

نظرت اليه بحنان، وساعدته على النهوض:

- طيب يا عم عبده. لا تزعل بحاول انتبه لنفسي. المهمّ انت حاسس بأي ألم؟

- ربّك وحده يعلم الألم اللي في قلبي عليكي. في عرضك... أبوكي وأمك واحنا مبقاش لنا غيرك.

تمتمت: «هذي المشكلة... أن ما بقى غيري».

أوصلته إلى أقرب مكان لمنزله، ثم قصدت الشلال وهي تشعر بالأسف لما حدث. وعندما وصلت أحسّت أنها غير قادرة على المكوث لتأكّدها أن منال، لو كانت على قيد الحياة، لن يرضيها حال التشنّج القائم بينها وبين حميدة، وستسعى إلى أن تصالحهما بعد أن ترغم شقيقتها على الاعتذار.

وبعد دقائق قليلة، غادرت المكان إلى غرفة حميدة. وجدتها مستلقية على الفراش، تقرأ القرآن وهي تبكي. غمرتها ليال كأنها تستسمحها. مضت حميدة في قراءة القرآن كما لو أنها ترقيها. ولمّا انتهت من القراءة، قالت ليال:

- لا تزعلين مني. أنا مالي غيرك وحقك على راسي. إلا زعلك ما أقدر عليه.

- ربّنا يحميكي من شرّ نفسك أنا ليّا مين غيرك. أنتي فاكرة انه سهل عليّ ازعلك، ده أنا باقوم واصحى ادعي ربّنا انه يحميكي ويجبر خاطري فيكي.

غيّرت ليال وجهة الحديث بعد هذا العتاب:

- عرفتي أن عبده بيسافر مع أولاده لدبي. يعني خلاص بيمشي من البيت.

- يمشي أزاي يعني؟ غريبة! وأنتي عرفتي منين؟

أخبرتها بالحديث الذي دار بينها وبين عبده في الشركة، ولم تخفِ قلقها:

- بس الغريب يا دادة، انه قعد يحذّرني من الناس القريبين مني. أنا مقدّرة انه مو قادر يسمّي عم تركي. عموما كثّر خيره. صدق بيوحشني.

- أكيد هيوحشنا كلنا. لكن موضوع السفر ده حاجة غريبة بكرا إن شاء اللّه اكلمه وافهم منه.

قبل أن تتركها ليال أبلغتها أن عشاءً سيقُام غداً في منزل عمّتها، وستحضره كي تعطي بسّام هديته. وتمنّت عليها مرافقتها، فوافقت.

في الصباح، لم تذهب ليال إلى الشركة. فضَّلت أن تدرس في المنزل استعداداً لاختبار اليوم التالي، لأنها ستذهب إلى العشاء في المساء. كعادتها هيّأت الجو لذلك. وضعت جوّالها على الصامت وأغلقت المسجّل وباب الغرفة كي يُتاح لها التركيز والاستيعاب. وبعد ساعات من المذاكرة، أحبّت أن تستريح قليلاً، فاتّصلت بحميدة كي تتغدّيا معاً. ثم تفقّدت جوّالها فوجدت ثلاث

مكالمات لم يُردّ عليها، وخمس رسائل، مصدرها كلها الشركة. لكن الرسائل من رقم مميّز لا تعرفه. حينما قرأتها عرفت أن مرسلها هو جاسر. وقد دلّت إحداها على استيائه الشديد لعدم تمكنّه من الوصول إليها. كان ذلك مدعاة للزهو بنفسها، إذ شعرت بأهميتها البالغة، لكنها لم تردّ على المكالمات ولا على الرسائل.

تغدّتا وتحادثتا في أمور كثيرة. وقبل ذهاب حميدة أخبرتها ليال أن عمّتها ستأتي لتقنع أباها وأمّها بتلبية دعوتها إلى العشاء. جزمت ليال أنهما لن يذهبا، وهي حاولت إقناع والدتها لكن ردّها جاء مخيّباً:

- ما بدي شوف حدا.

لم تستطع السيّدة سارة التكلّم مع شقيقها الذي نزع أسلاك الهاتف في غرفته كي لا يردّ على أحد.

مضت حميدة إلى غرفتها، وعادت ليال إلى المذاكرة، وجوّالها لم يتوقّف وميضه. وهي مستمتعة بذلك.

(٣٢)

اقترب موعد العشاء فراحت ليال تستعدّ. عندما انتهت من ارتداء ثيابها والتبرّج وغير ذلك من التفاصيل التي تستلزمها المناسبة، دخلت إلى غرفة والدتها لتلقي التحيّة. ثم غادرت. ولدى وصولها رحّبت بها عمّتها وبسّام وأبديا سعادتهما بحضورها. لم تتوقّع أن ترى جاسر بين المدعوين. على الفور أغلقت جوّالها وخبّأته في جيب حقيبتها الداخلي كي تضمن أن أحداً لن يراه. صافحت الجميع فرداً فرداً. وعندما جاء دور جاسر، قالت:

- يا هلا وغلا. ما كنت متوقعة أني أشوفك هنا.

وبشيء من الغضب والعتب أجاب:

- ليه ما تردّين على جوالك؟

- يا ساتر طيّب ردّ السلام.

- ردّي أول على سؤالي.

- لاني لمّا أدرس أحطّه على الصامت لين ما أخلّص.

- واللّه! وأنتي لين الحين ما خلّصتي دراسة؟

- دمك خفيف! صحيح خلّيني أشوف وينه أصلاً.

وراحت تبحث عنه في حقيبتها:

- الظاهر أني نسيته في البيت. أنت وش أخبارك وعمّي تركي هنا ولاّ ما جا معك؟

- أبوي جوّا، وبعد كذا انتبهي على جوّالك. أنتي إنسانة عندك مسؤوليات وأشغال. يعني لازم يكون الاتصال فيكي أسهل من كذا.

ردّت بابتسامة ودخلت لتحيّي سائر أفراد العائلة.

وإذا بالسيّد تركي يقول لها بصوت خفيض:

- اسمعي، أنا ما عاد أبي جاسر يوصلك أو انك تركبين معه السيارة. إحنا لنا تقاليدنا. وبعدين أنا قلت لك كلّميني لين وصلتي البيت. ليه ما كلّمتيني؟

- أنا كلمتك عشان ترسلّي سوّاقك وأنت اللي قلت لي إن جاسر هو اللي بيمر عليّ. عموماً الغلط إنّي من الأساس ما كلّمت عالبيت وكلّمت عالشركة. عموماً ما راح تتكرر.

تعكّر مزاج ليال لأنها أحسّت أن السيّد تركي لم

يستطع إطلاع جاسر على ما أراد كي لا يكدّر خاطره، ولامها هي. فقرّرت أن تعطي بسّام هديته وتغادر، فأومأت إليه أن يتبعها. وجلسا في مكان غير بعيد. فطلبت من حميدة جلب الهدية. ثم قالت له:

- اسمع. أنا جيت عشان أنت وعمّتي سارة ما تزعلون. لكن أنا ما حقدر أطوِّل لأن عندي اختبار بكرا. وكمان حبّيت أعطيك شي جبته لك.

نظر بسّام إلى الهدية مستغرباً:

- شكراً. لكن وش مناسبة الهدية، إذا قصدك تصالحيني فما في داعي لأنّي ماني زعلان منك.

فروَت له الحلم الذي رأت فيه منال، وسبب تقديمها الهدية إليه.

تأثّر جدّاً، وقال:

- يا حبيبتي هي... اللّه يعلم قد أيش وحشتني.

وأوشك أن يبكي لو لم تغيّر ليال مجرى الحديث:

- متى بتسافرون للصيف؟

وفيما هو يهمّ بالردّ، انقضّ جاسر على الهدية، معترضاً:

- انتم وش مقعدكم لحالكم بعيد عن الناس؟ وش هالهدية؟

أجابه بسّام محتدّاً:

- وطّي صوتك واحترم البيت اللي أنت فيه، ولا تتدخّل في شي ما يخصّك.

- إلا لي ألف دخل. وبعدين أنا ما وجهتلك كلام. أنا قاعد أحكي مع ليال.

تدخّلت ليال قبل أن يكمل بسّام:

- أنت ما لك حكم عليّ ولا تحاكي بسّام بهالطريقة.

وفيما هي متّجهة إلى السيّد تركي، وجدته مقبلاً بعدما سمع الجميع الحوار. وقبل أن تشكو إليه، استدعى جاسر بإشارة من يده، وغادرا معاً. وباتت العيون شاخصة كلها نحوها. اعتذرت إلى عمّتها وبسّام، وغادرت هي أيضاً.

في السيارة، حاولت التحدّث مع حميدة، فردّت الأخيرة:

- مش لازم نتكلّم دلوقتي... لما نروح البيت.

عندما وصلتا إلى البيت، اقترحت حميدة الجلوس في الحديقة فلم تمانع ليال التي عرفت أن لدى حميدة مآخذ عليها، ولن تستريح إلاّ إذا أفصحت عنها. هكذا هي حميدة، لا تخبّئ شيئاً في قلبها، فما تفكّر فيه تحكيه في الوقت المناسب، خصوصاً إذا كان متعلّقاً بليال. وما

حصل قبل قليل أغاظها بل أغضبها:

- اسمعي، أعتقد انك النهارده شفتي انك اديتي حق لجاسر انه يتدخّل في أبسط أمور حياتك. وحصلت مشكلة مكنش لها أي داعي. وخليتي عيلتك يشوفوكي بصورة البنت اللي عايزة تلفت نظر الشباب. وده مش أنتي. فالمفروض أنك تفوقي لنفسك وتحاولي تحطي حدود للي حواليكي، وحالة العصبية والعند اللي أنتي عايشة فيها، لازم تتخلصي منها.

- أنا ما سوّيت شي غلط. صحيح إن الموقف اللي صار خلّى جاسر ياخد وجه عليّ. عموماً أنا بعرف أوقفه عند حدّه.

- توقفي مين ولا مين، المفروض تفوقي لنفسك الأول. وبعدين فكّري في اللي حواليكي. الكُره بيولّد كُره والغضب بيولّد غضب أكبر، وعمر القلب اللي يحبّ ما يعرف يكره. لازم تواجهي نفسك وتعرفي أنتي مين في دول، الانسانة الطيّبة ولا الشريرة.

- الكره والغضب ولا شي عند اللي جوّاي. أنا مكسورة. فاهمة وش يعني مكسورة؟ وحقي اللي أنأخذ مني غصب برجّعه.

- حق إيه وغصب ازاي يعني؟

- حق أيش؟ حق أختي واللي صار فيها والصمت

اللي ذبحني ذبح. وأمي اللي ماتت وهي عايشة وأبوي اللي صار تمثال. كل هذا مو كفاية؟

- يا ليال اللي أنتي عايشة فيه ده مش هيوصلك إلا لطريق الندامة ولا عمرك هترتاحي في حياتك.

- أنا أصلاً مو مرتاحة. ولا اعتقد أن عمري برتاح. نفسي أعرف أيش سبب الحياة عشان أعرف كيف بعيشها.

- لا حول ولا قوة إلا باللّه.

في الطرف الآخر من المنزل، وتحديداً في منزل السيّد تركي، كانت محكمة أخرى منعقدة. فالسيّد تركي لم يُرْضِه تصرّف جاسر. فقرر أن يعنّفه كي يبتعد عن ليال:

- شوف عاد. اللي صار اليوم ما أبيه يتكرر ولا تفكّر انك تقرب من ليال مرة ثانية.

- وليه؟ وش صار مضايقك لهالدرجة؟

- اللي صار إنك تخانقت قدام الناس مع بسّام عشان ليال. ماني فاهم وش دخّلك أصلاً بينهم. اسمعني زين لأني ماحعيد كلامي. الموضوع هذا يتسكّر. وليال ابعد عنها.

- ايه ولو ما بعدت وش بيصير يعني؟

- واضح انك ما صرت تعرف تفرّق مع مين تحكي. لكن الظاهر اني دلّعتك بزيادة. اسمع. ولو عاد قربت من ليال، سيارتك بتنأخذ ودوّرلك على محلّ ثاني تعيش فيه. وبالمرة دوّر على شغل لأنك ما حتاخذ منّي ولا قرش.

ذهل جاسر من حدّة تركي، التي يواجهها للمرة الأولى:

- يا سلام كل هذا عشان الستّ ليال. أجل وراك ما سوّيت نُصّه مع منال.

هنا اغتاظ تركي وصمّم على وضع حدّ للجدل:

- اطلع برّا. ولا تخلّيني أسوّي شي أندم عليه.

شعر تركي بضربات قلبه تتسارع لشدّة توتّره واضطرابه. لم يظنّ يوماً أن من سيذكّره بتلك الليلة المشؤومة هو بطلها الأساسي. فما كان يتوقّعه هو اعتراف جاسر بالجميل بعدما تستّر عليه وحماه ورعاه، وليس تذكيره بأنه أحد المشاركين في الجريمة.

(٣٣)

انتهت ليال من اختباراتها. لكن المناوشات بينها وبين جاسر لم تنتهِ. تحتدم تارةً وتخفت طوراً. ومن فرط تكرارها باتت مألوفة ومسلّية، حتى إن ليال تجاهلتها تماماً في المدّة الأخيرة.

في هذه الأثناء، حاول بسّام أن يذكّر ليال بما سبق أن قالته حميدة، بطريقة لا تخفي رغبة الرجل في فرض رأيه. وهذا ما لم تتقبّله، فهي تأبى أن يفرض أحد عليها رأيه بالقوة والقهر، وكرّرت له ما قالته من قبل، وهو أن الخوف والاهتمام لا يأتيان في أوقات متباعدة. فإمّا هما موجودان دوماً، وإمّا غير موجودين. لم يعجب بسّام ما قالته، فعاد التوتّر إلى علاقتهما مجدداً.

(٣٤)

ذات يوم، شاءت ليال قبل الإخلاد إلى النوم، أن تطمئن إلى والدتها، فوجدتها على حالها. قبّلتها وتمنّت لها نوماً هانئاً. ثم قصدت غرفة حميدة، وقالت لها:

- ما أدري يا دادة متى أمي بتفوق من اللي هي فيه، أنا بديت أفقد الأمل.

- خليكي متفائلة إن شاء اللّه الفرج قريب. أنتي عارفة ان أمك مكنش في حد في الدنيا متفائل زيّها، دي لدرجة أنها لو كانت شافت حد من الشغّالين مكشّر يركبها مية عفريت، وما ترتحش إلا لو عدل وشه أو مشي من قدامها.

- يا ريتها ظلّت على كذا. تخيّلي زمان كنت متأكّدة أني باخذ من طبايع أمي كثير، لكن الظاهر إني غلطانة.

- بالعكس أنا شايفة ان فيكي كتير منها مش بس الشكل والطباع، حاجات كتير تانية.

- مثل أيش يعني؟

- يعني مثلاً موضوع الأحلام ده. أمك كانت معروفة أن أحلامها دايماً بتتحقق. كفاية الحلم المشؤوم اللي يا حبّة عيني فضلت تحلم بيه لغاية ما تحقق.

ردّت ليال بفضول واستغراب:

- أي حلم يا دادة؟ أنا ما أعرف شي عن هالقصة؟

- تعرفي أزاي أنتي كنتي صغيرة أوي. الست نوّارة بتحلم الحلم ده من ساعة ما كان عمرك أنتي والمرحومة ست سنين. وكانت تقوم مفزوعة من النوم وماتهداش غير لمّا أبوكي ياخدها في حضنه، ويقرا عليها قرآن.

- احكي لي الحلم يا دادة.

- يا ستّي في الحلم كانت أمك بتشوفك أنتي واختك بتلعبوا في الجنينة. وبعدين ما تلاقيكمش قُدامها. فتبتدي تدور عليكو لغاية ما رجليها تودّيها عند الشلال، وتلاقي وحده منكم أحجار الشلال عمالة تاكل فيها كأنها كلاب مسعورة. ولأنكم توأم ما كنتش عارفة في الحلم مين فيكم اللي بيحصل لها كده. مسكينة بسبب الحلم ده كان صوت الشلال بيجننها وأحياناً كثيرة كان بيوصلها لدرجة العياط.

لم يغمض لليال جفن تلك الليلة، فما قالته حميدة عن الحلم لم يمرّ بهدوء، وراحت الهواجس تعصف

بها. فماذا لو كان تفسيره هو الخيط الذي سيوصلها إلى من تسبب بقتل شقيقتها. وإذا كان هذا صحيحاً فلِمَ لم تطلعها أمّها عليه؟ ومن فسّر هذا الحلم لوالدتها؟ هذه الأسئلة وغيرها ظلّت تدور في خاطرها إلى أن أشرقت الشمس، وهي جالسة في غرفة المعيشة منتظرة أن تستفيق والدتها لتسألها هل ما روته حميدة صحيح، وهل فسّر أحد ذلك الحلم؟ وما تفسيره؟

بعد مدّة ليست طويلة، سمعت ليال وقع خطوات أمّها، فانتظرت بضع دقائق، طرقت الباب ودخلت. نظرت والدتها إليها وهي تتقدّم نحوها لتقبّلها، فلاحظت أنها تعبة جدّاً، فسألتها:

- شوفيه وجك مغيّر؟

- ما نمت يا ماما. قاعدة أستناك تصحين لأن في شي مرة مهمّ لازم أسألك عنه. وحياتي عندك تجاوبيني وترحميني من العذاب اللي أنا فيه.

- ليه شو صاير؟

- دادة حميدة حكت لي حلم كنتي تحلمينه من زمان. وقالت لي إن الحلم هذا تفسيره اللي صار لمنال. لكن أنا حاسّة أن له معنى ثاني.

وقبل أن تكمل حديثها انهارت الأمّ باكيةً، وراحت تصرخ:

- حرام عليكم خلّوني بحالي. ما بدي إحكي بهالموضوع ولا تذكّروني بهالكابوس. روحي على جامعتك. اللّه يوفقّك خلّيني بهمّي.

لم تستطع ليال أن تلحّ على والدتها أكثر من ذلك لتجيب عن أسئلتها بعدما انهارت تماماً، فقبّلت رأسها وهمست: «أنا آسفة». ثم اتّجهت إلى غرفتها وارتدت ملابسها وذهبت إلى الجامعة لتقدّم مشروع التخرّج. بعدما سلّمته، تفقّدت جوّالها على جاري العادة، فربّما اتّصل بها أحد ولم تنتبه، إذ كثيراً ما حدث هذا، فيذهب الظنّ بالمتصل إلى أنها تتهرّب منه أو لا تنوي الردّ، فيما السبب عائد إلى عدم الانتباه ليس غير. ولمّا وجدت مكالمة من السيّد تركي عاودت الاتّصال به، فباغتها بسؤال سريع بلا مقدّمات حتى قبل أن تحيّيه:

- وينك؟ المفروض خلّصتي اختباراتك من يومين ولين الحين ما جيتي الشركة؟ خير عسى منتي تعبانة؟

- لا يا عمّي ماني تعبانة. لكن توني مخلّصة من الجامعة لأنّي كنت أسلّم مشروع التخرّج وراجعة البيت أنام لأني مواصلة من البارح.

- إيه يعني تدلّعين. طيّب يا ستّي لك حق. عموماً روحي البيت ارتاحي وبكرا ابي أجي المكتب ألاقيك موجودة قبلي. أو أقول لك أنا بَمر عليكي الصباح.

- اللي تأمر فيه.

- أجل أشوفك بكرا. مع السلامة.

في طريق العودة، راحت تفكّر في تركي، قائلة لنفسها:

- لين متى يا ليال بتستهبلين وتسوّي نفسك منتي فاهمة حركاته معاكي، لين متى بتكذبين عيونك؟ كيف ممكن يفكّر فيني بهالطريقة وهو رجّال في مقام جدّي ومربّيني؟ ممكن يكون فيه شذوذ في العالم لهالدرجة؟ لكن ما في حلّ غير أني استمرّ كأني مو فاهمة. ولو الموضوع صار واضح بزيادة ساعتها ما في مفرّ إلا إني أترك الشركة وأوقفه عند حدّه.

وصلت إلى المنزل، وكعادتها تناولت وحميدة الغداء. سألتها حميدة:

- نمتي أمتى امبارح؟ أنا سبتك في الصالون الساعة اتنين الفجر.

- واللّه يا دادة عيوني ما شافت النوم للحين.

- عشان مشروع التخرّج؟ مش أنتي قلتي لي انك خلصّتيه؟

- لا مو عشان كذا، أنا قعدت استنّى أمي تصحى من النوم عشان اسألها عن الحلم إذا كان أحد فسّر لها

إيّاه. لكن ما قدرت أكمل حكي معها لأنها انهارت من البُكا. فاضطريت أسكت واطلع من الغرفة.

- يا مصيبتي يا ليال سألتيها عن الحلم؟ مش حرام عليكي؟ دا أنا قاعدة أقولك انها لما كانت بتسمع صوت الشلال كانت بتنهار قبل ما يحصل اللي حصل. فما بالك دلوقتي وتسمع سيرة الحلم المنيّل ده تاني. مسكينة ست نوّارة. اللّه يصبّرها.

انتاب ليال شعور بالذنب لأنها لم تفكّر في ردّ فعل والدتها. بعد الغداء، ذهبت إلى المكان السريّ وراحت تتأمّل وتفكّر وتحلم. بقيت هناك ساعتين وأكثر. ثم قصدت الشلال قبل أن تعود إلى غرفتها وتغيّر ملابسها وتستلقي على الفراش مترنّحةً من التعب وقلّة النوم. لم تكد تستسلم للنعاس حتى اتّصل بها جاسر، فلم تجِب وأغلقت الجوّال. وغفت متمنّية أن ترى منال في منامها لعلّها تأخذ منها أجوبة عن أسئلتها. لكن هذا لم يحدث.

في اليوم التالي، تأهّبت للذهاب إلى الشركة مع السيّد تركي الذي مرّ بها بحسب اتفاقهما أمس. استغربت عندما رأته مقبلاً وهو يقود السيارة بنفسه. حالما جلست في المقعد المجاور له، لاحظت أن هنالك هدية وباقة زهور جميلة في المقعد الخلفي يفوح منها

شذا طيّب. عرفت أنها هي المعنيّة بالهدية والباقة، لكنها تجاهلت الأمر برمّته:

- أكيد هذي الهدية لجاسر. صحّ يا عمّي؟

هزّ رأسه نافياً، ثم ابتسم، فظهرت علامات الزمن على خديه وفي مدار عينيه.

- أجل مين هذا اللي جايب له ورد وهدية بدري كذا؟

- هذي لك أنتي.

- لي أنا؟ بمناسبة أيش؟ أنا حتى لسه ما طلعت نتيجتي.

- هذي عشان خلصتي اختبارات ورجعتي لي. قصدي رجعتي الشركة. يلاّ افتحيها وقولي لي أيش رأيك في ذوقي.

أمسكت ليال بالهدية وفتحتها، فإذا هي ساعة رولكس مرصّعة بالألماس.

- هذا مرة كثير يا عمّي. أجل بعتبرها هدية النجاح كمان. شكراً.

- لا واللّه هدية نجاحك شي أكبر من كذا. وبطّلي كلامك السخيف هذا. أنتي ما تعرفين قدرك عندي.

- ما عندي شكّ. أنا عارفة إني صرت أقرب وحدة

لك من أحفادك، بعد جاسر طبعاً. وأتمنّى أني أكون عند حسن ظنّك.

كانت تردّ عليه بهذه الطريقة كأنها تصفعه بكلماتها كي يفيق من حلمه الأسود. لم تكن هذه الباقة هي الوحيدة التي تلقّتها في ذلك اليوم، بل تسلّمت باقتين أخريين، واحدة من جاسر والأخرى من مجهول.

(٣٥)

لم تصادف جاسر في الشركة ذلك النهار برغم تمنّيها لو يأتي. كانت ترغب في رؤيته. لقد بدأت تميل إليه. هذا الشعور الغريب والجميل لم يساورها يوماً. حينما عادت إلى المنزل بعد نهار شاق لم تكف عن التفكير في الطريقة الفضلى لفتح الموضوع مع والدتها مرة أخرى. في المساء، أرادت أن تطمئن إليها وإذا بالسيّدة نوّارة جالسة على الأرض، تبكي وحولها مبعثرة صور ابنتيها. عندما رأتها ليال على هذه الحال، منكسرة محبطة حزينة، أسرعت واحتضنتها بملء لهفتها. عانقتها الأمّ، وبدأت تجهش مجدّداً، فلم تستطع ليال الحفاظ على تماسكها، فأجهشت هي أيضاً، وقالت بصوت متقطّع:

- آه لو تعرفي يا أمي قد أيش أنا محتاجتك. آه لو تعرفي كيف وحشني حضنك. أنا آسفة لو كنت زعّلتك، لكن صدّقيني ما كان قصدي.

- اسكتي. خلّيكي بحضني.

- بس شي واحد جاوبيني عليه. يا ماما أنا وحيدة من يوم اللي صار... ما حكيت مع أحد. وفيه ألف سؤال بخاطري. وما في أحد قادر يجاوبني عليه. فعشان خاطري إجابة وحدة منك تريحني.

- مش هلاّ. بوعدك بحكيلك كل شي. بس مو هلاّ.

كفّت ليال عن الإلحاح لأن أمّها ليست في وضع يسمح لها بتحمّل المزيد من التوتّر وعبء الأسئلة، ولأن الإصرار قد يجعلها تمتنع عن البوح خوفاً على ابنتها التي ستنهار إن عرفت مضمون الحلم. تمنّت ليال أن تخبرها ولو معلومة عابرة تقود إلى كشف ملابسات مصرع أختها. أبت الأم أن تفتح قلبها، وتحكي. فنكست رأسها وهوت من عينها دمعة على كفّ ليال التي راحت تضمّها مواسيةً، وتدعوها إلى ضرورة المواجهة وتقوية عزيمتها.

مرّت عطلة نهاية الأسبوع دون أيّ اتّصال بين ليال وجاسر. وفي بدء الأسبوع الجديد، ذهبت ليال لمقابلة السيّد تركي في مكتبه، فإذا بالمساعد عبد اللّه ينظر إليها كمن لم يرَ امرأة في حياته. كانت عيناه تلمعان اشتهاءً وجوعاً ووقاحة. ولم يلجم نفسه عندما رآها، فتقدّم

نحوها، معلّقاً بوجهه ابتسامة زائفة، وقال:

- عجبك الورد اللي أرسلته لك؟

فوجئت بجرأته التي تخطّت الحدود، فردّت بحدّة وكاد حاجباها، من شدّة الاستغراب، يبلغان منبت شعر رأسها:

- كيف؟ أي ورد وعلى أي أساس ترسل لي ورد؟

فارتبك، وتمنّى لو تنشقّ الأرض وتبتلعه بعدما شعر بمدى عمق الخيبة، وجاء جوابه مرتجفاً:

- على أساس إني معجب فيك، وأبي أتعرّف عليك أكثر.

- أنت جاي هنا عشان تشتغل مو عشان تتعرّف...

قبل أن تُكمل كلامها، فُتح باب مكتب السيّد تركي وأطلّ جاسر الذي على ما يبدو، سمع ما دار بينهما، فانقضّ على عبد اللّه بلكمة قوية جعلت أنفه ينزف دماً، قبل أن يسقط أرضاً وهو يضع يده على وجهه عاجزاً عن الوقوف. ولم يكتفِ جاسر بذلك، بل أخذ يركله ويشتمه بعدما أمر ليال بمغادرة الشركة إلى البيت. وأسرع السيّد تركي على وقع الصياح والسباب، مهدّئاً جاسر الذي كان يتهدّد ويتوعّد:

- اتعوّذ من الشيطان يا جاسر. وادخل جوا المكتب.

وكأن جاسر فقد السمع فكرّر قوله لليال:

- قلت لك روحي البيت. أنتي ما تفهمين؟

- ماني رايحة البيت ولا تحاكيني بهالطريقة.

فتقدّم نحوها السيّد تركي، وقال بصوت هادئ موحياً أنه سيطر على الموقف، وأن كل شيء سيكون على ما يرام:

- روحي مكتبك الحين.

لم يتقبّل جاسر أن تُكسر كلمته:

- لا... تروح البيت وأنا كلامي اللي يمشي عليها مو كلامك أنت.

نظرت ليال إلى السيّد تركي نظرة تترجم تحدّيها له أن يردع جاسر عنها، وهذا ما استفزّه فدنا منه غاضباً، ووبّخه:

- احكي بأدب وفوق لنفسك. أنت اللي بتروح البيت مو هي. ولا عاد أشوفك هنا إلاّ إذا أذنت لك.

استوعب جاسر أن جدّه لا يمزح بل يقصد ما قاله. أخفق في إخفاء غيظه، فدفع الكرسي برجله وغادر. التفتت ليال إلى السيّد تركي التفاتة تنمّ عن رضاها عما آل اليه الموقف، ثم غادرت إلى مكتبها كما أرادت هي لا إلى البيت كما أمرها جاسر.

تواری جاسر عن الأنظار أسبوعاً كاملاً. لعله تقصّد ذلك إلى أن يبرد الجو. فهو يعرف أن جدّه إذا غضب فلن يرضى سريعاً. لذلك لم يأتِ إلى الشركة ولا إلى المنزل. أمّا عبد اللّه فطُرد.

(٣٦)

الصيف. بدأ معظم أفراد العائلة يستعدون للسفر من أجل قضاء العطلة. حاول بسّام مراراً أن يعيد المياه إلى مجاريها بينه وبين ليال التي بقيت على موقفها الرافض. وحدث أن اتصلت السيّدة سارة بليال وأعلمتها أنها تودّ مقابلة السيّد تركي في حضورها. استغربت ليال مثل هذا الطلب، لكنها نزلت على رغبتها، وعيّن السيّد تركي موعد اللقاء، بعد يومين مساءً، في منزله. في الوقت المحدد، حضرت السيّدة سارة يرافقها بسّام وليال. لم يكن لدى ليال أي فكرة عن هدف تلك الزيارة. بعد الانتهاء من احتساء الشاي والأحاديث العابرة والمتفرّقة، سأل السيّد تركي السيّدة سارة:

- أيوه سارة. ليال قالت لي انك تبيني في موضوع... خير؟

- واللّه يا عمّي ماني عارفة كيف أبدأ. لكن أنت عارف إن الحياة صارت صعبة، والدنيا كل يوم أغلى من

اللي قبله. وبسّام صار على وجه زواج وأبي أأمن له مستقبله.

- يعني تبين زيادة في الشهرية. ما في مشكلة. كم تبين؟

- لا يا عمّي مو القصد.

- أجل تبين مبلغ كاش؟

- واللّه يا عمّي أنا شايفة أن لو كل واحد منا أخذ حقّه من الورث يكون أفضل حتى عشان ما نزعجك كل شوي. وكثّر خيرك انك اتحمّلتنا للحين.

لم يتوقّع السيّد تركي أن يسمع ما سمع. على الفور اعتدل في جلسته، وتغيّرت تعابير وجهه، وبدا عليه الارتباك قليلاً لكنه سرعان ما تماسك، وردّ بهدوء يخفي وراءه عدم رضى:

- أيش قصدك كل واحد ياخذ حقّه؟ هو عشان أنتي تبين حصّتك من الورث كلهم بيمشون على كيفك. . . ليه؟ أنتي فاهمة الموضوع لعبة ولا سهل لهالدرجة؟

- أكيد مو لعبة ولا سهل يا عمّي. عموماً أنت عندك حقّ. أنا ما عليّ من أحد. أنا أبي ورثي والباقين يحكون عن أنفسهم.

- ورثك في أيش بالضبط في البيت ولا الشركة؟

- في البيت والشركة وباقي الأغراض.

- باقي أيش؟ ما في باقي. لو لك شي ففي هذول الاثنين وبس.

- كيف يعني؟ والأراضي والعماير والأسهم... وينها كلها؟

- أبوك أتنازل لي عنهم بيع وشرا وعندي الصكوك.

- ما يمكن أبوي يسوّي كذا. أكيد في شي غلط.

- شي غلط؟ أيش قصدك أنا حرامي؟ احمدي ربّك انك كل شهر بيوصل لك معاشك لأن لو على ورثك فلأنتي بتاخذينه اكثر من حقك بكثير.

وتدخّل بسّام:

- لو سمحت يا عمّي. ما في داعي لهالأسلوب. هي تبي تاخذ حقّها وتعرف أيش اللي لها. ودامك تقول إن جدّي اللّه يرحمه اتنازل لك بصكوك بيع وشرا، فمن حقّها انها تشوفهم. وعموماً الشركة والبيت أمر مفروغ منه. فتاخذ نصيبها منهم الحين. والباقي لما نشوف الصكوك.

فجأة، انتفض السيّد تركي واقفاً، بعدما كاد يفقد اتزانه، هو المعروف عنه الثبات في المواقف الحرجة. لقد خشي أن تهتزّ سلطته القائمة على إمساكه بمفاتيح ثروة العائلة، عندما يطالب الجميع بحصصهم من الإرث

على غرار السيّدة سارة. وهذا ما جعله يخرج عن آداب الضيافة حين رفع صوته في وجه بسّام:

- اطلع برّا بيتي الحين. وحقّها اللي تبيه بتاخذه لما أنا يجيني مزاج أعطيها اياه. أنا ما في أحد في الدنيا يتشرط عليّ. ما بقي إلا أنت بعد.

انتفضت السيّدة سارة واقفةً. لم تتفوّه بكلمة برغم الغضب الذي كشفه ارتجاف يديها، وطريقة مغادرتها هي وابنها. رافقتهما ليال إلى السيارة محاولة تهدئة خاطريهما. وقبل أن تودّعهما، قال لها بسّام:

- بجيك بكرا الساعة ثمانية. لازم احكي معك.

وعندما دخلت إلى المنزل، لاحظت أن السيّد تركي ليس على ما يرام. بدا تعباً. تنفّسه متقطّع. وراح يضغط صدره تارةً، ويطوّق رأسه بيديه طوراً. خافت ليال، فسألته بماذا يشعر. أجاب وهو يمسح فمه بطرف كم ثوبه:

- ما ادري! راسي بتنفجر. صداع مو طبيعي.

تضاعف ارتباكها عندما خُيّل إليها أنها رأت شيئاً كالدم على كمّه. بدأت فكرة تأخذها وأخرى تردّها، وهي لا تعرف ماذا تفعل. للحظات شعرت بأنها المسؤولة عن حياته. فبإمكانها مثلاً أن تتركه وحده في هذه الحال بحجّة أنها ذهبت إلى منزلها كي تجلب رقم

هاتف طبيب العائلة. لعل الموت خلال غيابها يخطفه، فتتولّى هي إدارة الشركة وسائر الأملاك، وتأخذ حصّتها من الثروة، وتنجو حصص الآخرين من قبضته، بل يتقاسم الجميع حتى ثروته. طردتْ هذه الفكرة من رأسها عندما راجعت حسابها ورأت أنه يعاملها معاملة مميزة، ولم يرفض لها طلباً إلى الآن. صحيح أنه أحياناً يتخطّى الحدود، ويفلت الوحش الكامن فيه، عندما تجمح شهوته إلى ملامستها، أو النظر اليها نظرات ملؤها الرغبة، ناسياً، او متناسياً أنها محرّمة عليه. لكن ذلك ليس مبرّراً للتخلّي عنه في حال كهذه. عدا أن المبادئ التي نشأت عليها وتشرّبتها تحت ظلال العائلة لا تبيح الطعن في الظهر والغدر. فهي اعتادت اختيار المواجهة لا الهروب، مقابلة التحدّي بالتحدّي لا الانكسار. وكي لا تتحمّل المسؤولية وحدها إن حصل مكروه ما له، اتّصلت بجاسر وأخبرته عن العارض الصحيّ المفاجئ الذي أصاب جدّه، وتمنّت عليه المجيء سريعاً لنقله إلى المستشفى قبل فوات الأوان.

وهذا ما حدث.

لم ترافقهما. لكنها ظلّت تتصل بجاسر حتى اطمأنت إلى أن حال السيّد تركي استقرّت، وإلى أن صحّته تتحسّن شيئاً فشيئاً. نامت تلك الليلة على الأريكة

في غرفة المعيشة بعدما هدّها التعب وطول السهر. في الصباح، استعدّت للذهاب إلى المستشفى من أجل زيارة السيّد تركي، فاتّصلت بجاسر كي تأخذ منه رقم الجناح. وابتهجت عندما سمعته يقول:

- الحمد للّه الحين راجعين. تعالي على البيت بستنّاك.

لم تستطع ليال أن تنكر فرحتها بعودة جاسر، فتأنّقت وذهبت إلى منزل السيّد تركي. استقبلها جاسر وكان للعيون كلام خاطف ترجمه على الفور دفء الأيدي لدى المصافحة. وسرعان ما اشتعل ما كان قد خمد في الماضي، وبادرته ليال بعذوبة تفصح عما تكنّه له:

- وينك؟ ما بغيت ترجع؟

- وحشتك؟

- وليش توحشني أنا عشان عم تركي، أنت عارف انه قاعد في البيت لحاله.

- طول عمره قاعد لحاله. وش الجديد؟ عموماً أنا مو محتاج أسمعك تقولين انّي وحشتك، عيونك فضحتك.

ثم سألت عن حال السيّد تركي، واتّجهت إلى حيث هو. سلّمت عليه وهنّأته بعودته معافىً. فأخبرها أن الطبيب نصحه بملازمة الفراش ثلاثة أيام، والاستراحة

التامّة إلى أن تستقرّ حالته. ودّعته، وغادرت. لحق بها جاسر واستوقفها:

- يا ريت تردّين على جوّالك وعلى المسّجات اللي تجيك.

لم تردّ. ابتسمت ومضت.

الساعة الثامنة، وصل بسّام، وطلب من حميدة أن تُعلم ليال بوصوله وقد بدا متذمّراً حانقاً. دقائق قليلة وجاءت ليال. رحّبت به. جلسا في ركنهما المعتاد. قبل أن يحتسي قهوته قال:

- أنا جاييكِ اليوم وابي منك خدمة، ما اعتقد انك بتردّيني.

- لو أقدر عليها من عيوني.

- تتذكّرين لمّا قلتي لي إنك واقفة على حلالك وإنك بتحافظين على حقّك عشان لو أحد جا في يوم وقال لك إن مالك شي يكون تحت يدك الدليل أن لك حقوق؟

- أكيد أتذكر. واتذكّر كيف كنت مو موافق على كلامي.

- هذا مو موضوعنا. أنا أبيك تجيبي لي الأوراق اللي يحكي عنها عم تركي لأني متأكّد انها ما هي موجودة. ولو موجودة أكيد مزوّرة. ما يمكن جدّي يكون باع لتركي الأراضي والأسهم والعماير كلها إلا في

حالة انه كان مديون له. وهذا أمر ما يصدقه عقل.

- كيف يعني تبيني أجيب الأوراق؟

- أنتي الوحيدة اللي تقدرين تدخلين مكتب عم تركي من غير ما أحد يسألك ليه. وما يمكن أحد يشكّ فيكي لو شافك تدورين في مكتبه. ولين لقيتيها جيبي لي إياها أو على الأقل صورة منها.

- يعني تبيني أسرق الورق؟

- هذي مو سرقة. هذي مطالبة بحق.

- حقك أنت وحق أمك مو حقي أنا، ودام الموضوع ما يخصّني فأنت اللي تروح وتطّلع الورق. أمّا أنا ما أسرق أحد أمنّي على شي.

- يا سلام! الحين صرتي في صفّ عم تركي! طبعاً عشان ما يحرمك من اللي أنتي فيه.

- على الأقل ما طلب مني أسرق أحد أو أخون أحد. وبعدين وش اللي بيحرمني منه ما كان عندي من الأصل. فكّر في حكيك يا بسّام قبل ما تقوله.

- يعني تبين تقولين لي إنك مصدّقة الحكي اللي قاله؟

- بصراحة أنا اللي قدّام عيني الشركة والبيت، أما موضوع العماير والأراضي والأسهم ما أعرف عنهم شي. وإذا كانت عمّتي تعرف عن هذا كله وش اللي مسكّتها للحين؟

- لأن اللي كان ماسك حلالها عمّها. ليه تشكّ فيه؟

- دام الموضوع كذا ليه شكّت فيه الحين ولا عشان الحكي ما عجبها؟ اسمع. اللي له حقّ ياخذه بيده وأنت رجّال قادر على كذا. مو المفروض انك تطلب من بنت عمّك إنها تسرق أوراق وتجيب لك إياها. أنا آسفة ما حقدر أسوّي هالشغلة.

- عموماً شكراً. آسف إني وثقت فيكي وكنت معتبرك أختي اللي بتوقف جنبي.

- أختك! ولمّا أختك طلبت مساعدتك عشان تعرف وش صار لمنال، وش سوّيت؟ كنت ترسل لي أيميل تطمّن عليَّ وتسألني إذا في جديد. لكن ما وقفت جنبي كأخ. فلا تتوقّع الحين انك بتلاقيني جنبك أخت ممكن تسمع كلامك في الشي الغلط لأنك ما وقفت جنبي في الشي الصحّ.

لم يحسب بسّام أن ليال سترفض مجاراة خطّته، فحمل خيبته وغادر. خلافاً للعادة بعد كل لقاء يجمعهما، شعر أن وداعها له بارد وجاف. خمّن أنها باتت تحقد عليه أو تكرهه، واستبعد، نتيجة ما حصل، أن تسلّم إليه أيّاً من المستندات التي طلبها حتى لو وقعت بين يديها.

اختلت ليال بنفسها، وراحت تفكّر حتى تعدّت دورات عقلها المليون في الثانية الواحدة. تساؤلات وأفكار أرهقت عقلها الذي يصارع على أكثر من جبهة في الوقت نفسه:

- ممكن يكون عم تركي سرق حقّ عمّتي في الورث؟ وإذا كان هذا صحيح، ليه يرسل شهرية بهالحجم للكل؟ وليه ما مانع في أول الحكي انه يعطي لعمّتي شهريّة أكبر أو حتى مبلغ كاش؟ لكن اللي يفكر كذا في حفيدة أخوه ممكن يسوّي أكثر. واللّه مو بعيدة عليه. وحتى لو صحيح، وش بيدّي أسوّي. كل إنسان يدوّر على حقّه مثل ما أنا أدوَّر على حقّي.

شاءت أن تغوص في بئر الأسئلة بحثاً عن الإجابة الصحيحة، لكن دلوها خرج فارغاً. فأيقنت أنها أصبحت عاجزة عن رؤية الصورة واضحة، وعن الحكم على الأمور كما ينبغي.

في صباح اليوم التالي، لم تستيقظ في الوقت المألوف، بل قبله. أيقظتها مكالمة هاتفية غير متوقّعة:

- أهلين يا عمّتي صباح الخير.

- أي خير يا ليال أنا زعلانة عليك، ما كنت أتوقّع إنك ما توقفين معي خصوصاً ان لو لي حقّ بيكون لأبوك قدّه مرتين.

- انا ما أقدر آخذ أوراق من مكتب عم تركي واعطيها لبسّام. انا ما أتربيت على كذا. وعمري ما حكون كذا.

- حتى لو كان هذا حقّك؟

- أولاً هذا مو حقّي. حقّ أبوي وهو ما سأل عنه. بصراحة أنا قلت لبسّام أني ما أعرف شي عن الاشياء اللي قلتيها إلا الشركة والبيت. وبعدين أنتي عندك زوج منصبه كبير وله نفوذ، وبسّام رجال ممكن يوقف معك. لكن أنا ما أقدر أخون ثقة عمّي تركي لأنه في مقام جدّي فأرجوكي جنّبيني الإحراج.

- هذا آخر كلام عندك؟ يعني منتي مساعدتني؟

- قدّري موقفي وسامحيني أنا ما حقدر.

- دام كذا أنا ما عاد أبي أشوفك. وبيتي لا عاد تدخلينه. وبسّام مالك علاقة فيه من اليوم.

- شكراً وتأكدي إن كل اللي تبينه بيصير.

مع انتهاء المكالمة، أجهشت ليال باكية. ما سمعته قبل قليل زلزل كيانها، وزعزع أمراً كانت تعتقد أنه ثابت في حياتها، ولن يكون يوماً موضع تشكيك، وهو اقتناعها بأن عمّتها وابنها لن يتخليا عنها أبداً. حقاً، ليس هنالك شيء ثابت في الحياة. كل شيء متحرّك،

وخصوصاً المشاعر. كانت تبكي بحرقة. هكذا أمست وحيدة في مهبّ العواصف. وقد اسودّت الدنيا في عينَيها. فلو كانت الدموع تحلّ المشكلات المستعصية لما توقّفت عن ذرفها، لكنها لا تفعل سوى تفريغ الصدور الممتلئة بسُحب الأسى واللوعة لعل النقاء يعود إليها مجدداً. كانت تبكي وتئن وتمسح دموعها بكفّيها. سمعت حميدة أنينها وهي تمرّ بجوار غرفتها. فدخلت بلا استئذان، وسألتها في لهفة:

- مالك يا ليال؟

لم تردّ بل ارتفع صوت نحيبها ودفنت وجهها بين راحتيها.

- يا نهار أبيض. إيه بس اللي حصل كفى اللّه الشر عشان تعيطي كده. في حد زعلك؟

اتكأت على كتف حميدة، وأخبرتها ما قالته عمّتها في المكالمة. فأيّدت حميدة موقف ليال:

- كل واحد يدوّر على حقّه بطريقته. أنتي مش ملزومة بيهم. عمّتك عندها ابنها ربّنا يخليهولها راجل، وزوج له مكانة يوقف لها زي ما قولتلها! كلام ايه ده. صحيح عم تركي شديد لكن لا يمكن ياكل حقّ أخوه وأولاده.

(٣٧)

لم تتوقّف المسّجات بين ليال وجاسر، كأنها مباراة كرة قدم يوميّة بين فريقين يتعادلان دوماً، ويبقى التحدّي المتبادل قائماً لكن فوز أحدهما على الآخر متعذّر. وهذا ما كان يسعد ليال ويجعلها تنتظر الجولة المقبلة، حتى التقت جاسر في الشركة، فسألها:

- تحبّين الكورة؟

- إي أحبها.

- تشجّعين أي فريق.

- لا مو لدرجة اشجّع فريق بس أحبّ أتفرّج على اللعب.

- طيّب عمرك حضرتي مباراة؟

- لا طبعاً. وين أحضرها يعني؟

- أيش رأيك تحضرين؟

- كيف؟ قصدك في البحرين؟

- ما يهم وين. المهمّ انك تبين تحضرين.

- إي ابي.

عادت ليال إلى المنزل وهي تفكّر في حضور المباراة. أحبّت الفكرة لكن الوقت ليس وقتها الآن. هنالك أمور كثيرة تقلقها وأهمّها قصّة الحلم الذي لم تزل أمّها مصرّة على عدم البوح به. وفي المقابل، تصرّ هي على معرفته. هذه المرة أيضاً، عاودت المحاولة. صعدت إلى غرفة والدتها. وقبل أن تمسك بمقبض الباب، سمعت أباها يرجو من أمّها الصفح عنه:

- يا نوّارة حرام عليكي. سامحيني. أنا كل يوم أدعي ربّي إنه ياخذني من الدنيا عشان أريحك وأرتاح.

- هيدا اللي قدرت عليه أنك تدعي على حالك إن اللّه ياخدك. لأمتين راح تضلّ سلبي. لو ما أنا عرفت كيف خلّي أهلك يحبّوني وفرضت احترامي على الكل، كنا طلّقنا من زمان، بس ما تخيّلت ولا تصوّرت إن ضعفك بيوصل لدرجة بناتك. تشوف بنتك قدّام عينك متل ما شفتا وتسكت. واللّه لو كانت بنت حرام كنت تحركت. أنت شو جنسك؟

- وأنتي مين اللي قال لك إني ما عملت اللي في مصلحتها؟ يعني الفضيحة كانت حتريحك؟

- كيف يعني؟ مش معقول تكون ما بتعرف شي!

قول لي يا أحمد لو بتعرف المجرم وعملت فيه شي ما تخاف قول لي... احكي. برّد قلبي على بنتي.

هنا دخلت ليال. وبعد صمت الأب، الذي استمرّ دقائق مرّت عليها كأنها دهر، قالت:

- لو سمحت خلّينا لحالنا يكفي اللي سويته فيها.

وسرعان ما استأنفت نوّارة الكلام:

- شوف بنتك المسكينة ليال اتيتمت وأمها وأبوها عا وش الدنيا. اسمعي يا ليال أنا راح قولك شي قدام هالرجال ياللي المفروض انه ابوكي. الحلم اللي قالت لك عنو الدادة حميدة أنا عم بحلمه من لما كان عمركن ست سنين. من هداك الوقت وأنا عم قول لأبوكي يطلعنا من هون لأني كنت متأكّدة أن هالبيت راح ياخد وحده منكن. بس لأن أبوكي ما بيقدر يبعد عن أبوه وما بيقدر يقول شو بدو، قعدنا بهالبيت. ويللي حلمت فيه وقلتلو إياه صار بالحرف. لو كان خايف عليكن كان قدر يطلعنا من هون أو على الأقل كان هدّ الشلال أو كان انتبه عليكم أكتر من هيك.

انتفض السيّد أحمد مدافعاً عن نفسه:

- أنا ما حبّيت في حياتي غيركم. وما ضحّيت إلا عشان ترتاحون. عمركم ما راح تعرفون ولا تفهمون العذاب اللي أنا فيه.

لم تردّ ليال لأن والدتها في حال يُرثى لها، لكن بركان الغضب الذي انطلق في داخلها دفعها إلى المواجهة. فأمسكت بيد أمّها، وقالت:

- أعرف إني مو لازم أحكي. بس اعذريني يا أمي ما عاد فيني أصبر أكثر من كذا. أيش تفسير هالحلم قولي لي؟

احتضنت الأمّ يد ابنتها وقبّلتها:

- معناه حدا من أهل البيت هو يللي عمل هيك يا ليال.

نزلت الصدمة على ليال قويّة. فلم تستوعبها فرفعت صوتها غاضبة:

- كيف يعني من أهل البيت؟ وكيف سكتّوا؟ لا ما يمكن. أكيد الحكي هذا مو صحيح. أكيد واحد غريب.

قالت هذا الكلام وركضت إلى غرفتها. أغلقت الباب، وبدأت تسترجع ما حدث منذ يوم وفاة منال وصولاً إلى يومها هذا. وقد استوقفها أمر واحد لم تجد له تفسيراً منطقياً، هو تصرّفات البستانيّ عبده. ولم يبرح مخيّلتها السؤال:

لِمَ يُقدم على شيء كهذا؟

في مطلع الصباح، وصلتها من جاسر رسالة:

- صاحية ولا نايمة؟

- صاحية وابي أطلع من البيت؟

- عشر دقائق وبنتظرك عند باب بيتنا الخلفي.

ارتدت ليال ملابسها وراحت إلى منزل جاسر وركبت إلى جانبه في السيارة، فقال لها:

- انزلي تحت شويّ لين ما نطلع من البيت، ما في داعي أحد يشوفك.

- أنا ماني خايفة من أحد، اللي يشوف يشوف.

- تعجبيني.

انطلقا متّجهين إلى البحر إذ قرّر جاسر أن يأخذها في جولة على متن قاربه. في القارب أشعل سيجارة وسألها هل تريد أن تدخّن، فأجابت:

- أنا ما أدخّن.

- جرّبي.

- قلت لك ما أدخّن... ممكن أسألك سؤال؟

- أكيد.

- تتذكّر منال زين؟

- ما في داعي نحكي في هالموضوع.

- ليه ما نحكي؟ أنا نفسي أقول اسمها وأحكي مع أحد عنها.

- ليال سكّري الموضوع.

- يعني لو منال عايشة تعتقد كانت بترضى عن اللي بينا؟

- ما في شي اسمه لو، لأنها ماتت، عارفة وش يعني ماتت؟

وانتحى جانباً في القارب وأخرج من جيبه حبوباً، تناول واحدة. فسألته:

- أيش هذا اللي تاخذه؟

- هذي حبوب تهدّيني.

- أعطيني واحدة.

- لا ما حعطيكي، لازم نرجع الحين.

رجعا. قبل أن تترجّل من السيارة، سألته:

- متى بتاخذني احضر مباراة ولا رجعت في كلامك؟

- ببلّغك قبلها. تصبحي على خير.

لم تدخل ليال إلى المنزل مباشرة بل استدعت سائقها وذهبت إلى الشركة كي تحاول الهروب من دوّامة الأفكار التي أبت أن ترسو بها على برّ. في الشركة لاحظ تركي أنها شاردة الذهن. فقال لها:

- أيش فيك؟ أنتي تفكرين في اللي قلته لسارة؟

- صحيح.

- لا تزعلين ولا تحسبين انك مثلهم. أنتي حساباتك شي ثاني.

- كيف يعني شي ثاني يا عمّي؟

- صحيح عادل أتنازل لي عن أغلب الأشياء. لكن أنا ما رح أعاملك مثلهم، ونصيبك بتاخذينه وزيادة.

ابتسمت وانتهى الحديث.

ظلّت طوال اليوم التالي ساهمة، تتناتشها الأفكار والأسئلة. لاحظت حميدة ذلك:

- مالك شايلة طاجن ستّك على راسك؟

- واللّه يا دادة أنتي رايقة ولك خلق تمزحين. ليه ما علّمتيني كيف أصير مثلك.

- أنتي هتعيشيلي في دور أمينة رزق ولا إيه؟ لا في عرضك الموضوع مش مستحمل النكد ده كله، ربّنا قال: إن بعد العسر يسرا. وتفاءلوا بالخير تجدوه. ارحمي نفسك وارحمي شبابك. الدنيا حلوة. مهما مرّيتي بتجارب صعبة لازم تاخديها على إنها درس تتعلّمي منه وتخرجي منه أقوى مش أضعف.

- يا ريت. كنت أتمنّى أعرف أبسّط الأمور مثلك.

- ربّنا يصلح حالك ويهدّي سرّك.

واستطردت حميدة:

- أنتي رحتي لأمّك اليوم ولا لسه؟

- ايه رحت لها بس كانت نايمة فما حبّيت أزعجها. أنا بَروح الشركة.

لم تستطع ليال البوح بأنها لم تذهب إلى أمّها، وبأنها غير قادرة على التحدّث إليها أو رؤيتها، بعد أن أطلعتها على تفسير الحلم وعلمت أن أحداً من أهل المنزل هو من قتل أختها. فهي غاضبة منها لأنها لم تحاول معرفة مَن الجاني؟

خلال الدوام، ذهب جاسر إلى مكتب ليال، وهو يحمل كيساً:

- بستناك اليوم الساعة ٦ قدام بيتنا. بس بشرط انك تكونين لابسة الأشياء اللي في الكيس هذا.

وغادر بعد غمزة تضمر أكثر من معنى.

قامت ليال على الفور لترى فحوى الكيس، فوجدت ثوباً أبيض رجالياً وسروال سُنّة وشماغاً وطاقية وعقالاً. استغربت ذلك لكن مضمون المغامرة أعجبها. وفي تمام الساعة السادسة، كانت تنتظر جاسر في منزله، ملثمة لكنها مرتدية الملابس وتخفي معالم صدرها بسُترة. نظر جاسر إليها، وقال:

- الحمد للّه إنك بنت لأن لو في رجال بهالحلا ما أدري وش كان بيصير.

- أنت نصّاب. يلاّ قولي لي وين بنروح؟

ركب جاسر السيارة. ولم يجلس في مقعد السائق بل في المقعد المجاور وهي تنظر إليه بكثير من الدهشة:

- أنت وش تسوّي؟

- وين بتاخذينا؟

- أنتَ انهبلت. تبيني أسوق السيارة عشان المرور يمسكني؟

- ولد أمه اللي يفكّر يوقف سيارتي. اركبي بس.

ركبت السيارة وراحت تقودها بسرعة على كورنيش الخُبر. حتى كورنيش الدمام لم يسلم منها. قضت أغرب ليلة في حياتها. لم تتوقّع أن تقود في يوم من الأيام سيارة داخل المملكة. وبعد جولات دامت ساعة، وأكثر، قال جاسر:

- وقفي عشان أسوق ونروح المباراة.

- أيش؟ مباراة؟ أنت مجنون! واللّه شكلك بتودّينا في ستين داهية.

- مو صاير شي غير إنك ممكن تتغازلين.

واستمرا يضحكان حتى وصلا إلى الإستاد.

حضرت ليال الشوط الأول من المباراة. لكنها لم تستطع أن تكمل إذ شعرت أن نظرات الشباب إليها باتت مزعجة جدّاً، ففضّلت أن تنسحب قبل افتضاح أمرها.

وعند وصولهما المنزل وقبل أن تترجل ليال من السيارة، قالت لجاسر:

- تعرف أنا ما كنت أتخيّل إن ممكن بنت تعيش كل اللي أنا عشته اليوم. أنت مانت فاهم... كيف سواقة السيارة حسّستني بالحرية.

- طيب أنا ما لي مكافأة؟

- أيش تبي مكافأتك؟

- غمّضي عيونك.

- ليه قالوا لك عني هبلة؟ لو تبي تسوّي شي سوّيه وأنا مفتحة عيوني.

وبدأت تشعر بحرارة أنفاسه على وجنتيها. قَبَّل خدها الأيمن ببطء ثم اتّجهت أنفاسه إلى أذنها، فشعرت بشفتيه تقبّلانها وصوته يهمس «جننتيني». شعرتْ بأصابعه تتغلغل في شعرها. وعندما حاولت أن تدير وجهها حتى تبعد همساته عن أذنها، تلامست شفاههما. ضعُفت. استسلمت لرغبة جسدها فأغمضت عينيها كي تنتشي أكثر فأكثر بقبلاته المحمومة. وبدأت يداه تنزلقان نزولاً من

شعرها إلى رقبتها وكتفيها. وقبل أن تصلا إلى صدرها، أفاقت مرتعدة، ودفعته بعيداً عنها. ثم فتحت باب السيارة وخرجت مسرعة وهي ترتدي عباءتها. قصدت غرفة حميدة باكيةً من الخجل والإحساس بالذنب. عندما دخلت كانت حميدة تتحدّث على الهاتف، فلم تلحظها. تجنّبت ليال أن تزعجها. لكنها تجمّدت في مكانها مذهولة عندما سمعتها تقول:

- أنت بتقول إيه يا عبده! عارف مين عمل كده في منال وساكت السنين دي كلها! حرام عليك، دي أخرتها. انطق مين اللي عمل كده؟

فوجئت ليال، فتجمّدت في مكانها تتحقّق مما تسمعه. أول وهلة، لم يستطع عقلها أن يدرك مَنْ هو عبده هذا، وماذا حدث لمنال. انقضّت على هاتف حميدة وراحت تصرخ بالمتّصل:

- مين اللي سوّى كذا في أختي؟ انطق. بقتلك لو ما اعترفت. ألو... ألو...

لم يجب عبده. أقفل الخطّ ربّما قبل أن يسمع صوتها. أو ربما سمعه لكنه لم يردّ. فماذا يقول لشابّة مفجوعة بموت أختها، وهو يعرف أنها لا تزال صغيرة على تلقّي صدمة كبيرة إنْ باح بما لديه من معلومات تكتّم عليها طويلاً. خاف أن يفقد لقمة عيشه إذا حكى.

وخاف أيضاً على ولديه. فالذي يقتل شخصاً من لحمه ودمه، لن يتورع عن قتل غرباء. لاذ بالصمت منتظراً الفرصة المناسبة. وعندما بات في مأمن من بطش السيّد تركي، أخذ المبادرة وتكلّم. اختار حميدة لمعرفته مدى عمق صلتها بالعائلة كلها، وخصوصاً بليال. لم يكن سهلاً أن يتحمّل عبء عذاب الضمير طوال تلك المدّة. موقف صعب لا يُحسد عليه. لكنه الآن قال ما عنده واستراح. استراح هو، وجنّ جنون ليال. فألقت بالجوّال أرضاً، فتحطّم. وعلا صوتها وهي تدور في الغرفة كمن أصابها مسّ هستيري:

- سكّر الخطّ. كان عارف الكلب وعايش معنا في البيت. وينه أعطيني عنوانه. كم رقمه؟ انطقي.

خشيت حميدة من ردّ فعل ليال. فأخفت بيديها رأسها المتدلّي، وأخذت تبكي بكاءً مرّاً. لم تشفق ليال عليها، أفقدتها المفاجأة اتزانها، هي التي انتظرت هذا اليوم الذي حمل إليها النبأ السار والمروّع في الوقت نفسه. سارّ لأن خيوط الجريمة تتضح أكثر فأكثر، ومروّع لأنه سيعيد إحياء فصولها وينثر الملح على الجروح التي لم تندمل ولن تندمل. ولأنه أيضاً سيدمّر عائلة بنت مكانتها بعرق الجباه والحرص على الصدق والاستقامة. في تلك اللحظات، كان همّ ليال الوصول

إلى شخص واحد: البستانيّ عبده. أمسكت بذراعَي حميدة التي لم تعرف ماذا تفعل في هذا الموقف الصعب، وأخذت تهزّها بقوة:

- احكي أنتي تعرفين وين ألاقيه؟ انطقي.

رفعت حميدة وجهها وهي تحميه بيديها تحسّباً من تلقّي صفعة أو لكمة، وقالت بصوت مرتجف:

- يا ريتني مت قبل ما أسمع اللي سمعته.

عدم ردّها المباشر على السؤال، دفع ليال إلى لطمها على صدرها، مردّدة:

- اعطيني رقمه الحين.

- معنديش رقمه هو اللي كلّمني من رقم معرفوش.

أفاقت ليال من حال الارتباك والضياع، وأسرعت إلى لملمة قطع الجوّال المبعثرة كي تتمكن من فتحه واستخراج الرقم. عندما وجدت الرقم علمت أنه رقم إحدى كبائن الهواتف العامة الكائنة في الشارع. احتفظت به وغادرت غرفة مربّيتها إلى غرفتها واتّصلت بكل الذين يعملون في المنزل، لعل أحداً يعرف شيئاً يتيح لها العثور على عبده. لم يحالفها الحظّ. ليس هنالك معلومة واحدة تشفي الغليل. كانت تفكّر في طرق أخرى، عندما أخبرها سائق والدها بأن لعبده صديقاً زاره هنا في المنزل أكثر من مرة، كما أن عبده زاره في مناسبات عدّة، وكان

هو يقلّه إلى الظهران حيث يقيم الصديق، فطلبت منه أن يصحبها إليه في الصباح المبكر.

لم تذق ليال النوم في تلك الليلة. كانت تنتظر أشعّة الشمس بفارغ الصبر. وفور ظهور أول خيط ضوء، ارتدت عباءتها السوداء واستقلّت سيارة والدها قاصدةً منزل ذلك الرجل. استغرق الوصول إليه نصف الساعة. أسئلة كثيرة كانت ترافقها، وأحياناً ترتسم على الزجاج الأمامي للسيارة:

«ماذا سيحدث إن وجدته؟ وماذا لو لم تجده؟ هل سيفصح بما لديه من معلومات؟». عندما وصلت إلى المكان المنشود، ترجّلت من السيارة. ضغطت زرّ الجرس بيد، وبالأخرى دقّت الباب من دون توقّف. أطلّ رجل مسنّ، فوجئ بشابّة جميلة تقف قبالته. ظنّ أنها ضلّت الطريق وجاءت للاستفسار، أو أنها واحدة من بنات قريب له أقبلت لزيارته:

- خير، مين أنتي؟

عرّفت بنفسها وسألته عن عبده بلهجة مغلّفة بالتهديد. فأجاب:

- سافر مع أولاده دبي. ليه خير أيش فيه؟

- لا تستهبل. أنت عارف أنه ما سافر. فأحسن لك قول لي وينه.

- أحسن لي! أنا ليه أكذب. هذا اللي اعرفه.

لم تصدّقه. دفعته بقوة نحو الداخل. وراحت تدكّ بصوتها أرجاء المنزل:

- عبده... عبده. أنا عارفة إنك هنا، اطلع وإلاّ بكرا ماحتطلع عليك شمس.

فتّشت كل ركن في ذلك المنزل الصغير. وعندما يئست، التفتت إلى العجوز، وقالت بصوت شيطان غاضب:

- لو تأكّدت انك تعرف عنه شي ومخبّيه بكسر راسك مثل ما بكسر راسه.

- تكسري راسه! ليه؟ هو وش سوّى؟

واستطرد مظهراً الرغبة في التعاون:

- واللّه ما أعرف مكانه. وعموماً خلّي رقمك. وأقسم باللّه لو عرفت عنه شي بكلّمك. أنا أبي أعيش في سلام أنا وأولادي.

أعطته الرقم وغادرت.

وفيما هي عائدة، اتّصل بها السيّد تركي طالباً إليها المجيء إلى الشركة لمسألة مهمّة. فردّت عليه:

- أصلاً أنا جاية على الشركة. في شي ضروري لازم أحاكيك فيه.

- خير عسى ما شر وش فيه صوتك؟

- أنا باقي لي مسافة بسيطة وأوصل. لو سمحت انتظرني. لكن يا ريت نكون لحالنا يا عمّي.

- في انتظارك.

عندما دخلت إلى مكتبه، نظر إليها وقال:

- وش فيك؟ أنتي كنتي تبكين؟ وش صاير؟ جاسر سوّالك شي؟

جلست. وبعدما استراحت، قالت:

- جاسر ما سوّالي شي يا عمّي. تعرف أحد مهمّ في الجوازات؟

- طبعاً أعرف. وش تبين من الجوازات؟

- أبي أعرف إذا كان الكلب عبده سافر مثل ما قال ولاّ لأ؟ ولو سافر وين راح. حتى لو جوّا المملكة ابي أعرف وينه.

- عبده اللي كان يشتغل عندنا؟ وش سوّى بعد؟

- سرق أشياء وأنا أبيها. لازم تجيب لي إياه. أنا أول مرة أطلب منك طلب.

- وش هالأشياء اللي تخليك تبكين؟ قولي لي وأنا أجيب لك أحسن منها.

- هذي سروج خيل. صحيح ما هم غالين لكن كانوا هدية من منال. قبل ما يروح قال لي إنه بياخدهم

يلمعهم ويظبّطهم وما رجعهم. وما في شي في الدنيا بيعوضني. لو سمحت يا عمّي جيب لي إيّاه وأنا بتصرّف معه.

- ولا يهمّك. اليوم بعد العشا يكون عندك الخبر. وأغراضك بترجع ولا تزعّلين نفسك.

شكرت عمّها واعتذرت إليه عن عدم استطاعتها البقاء إلى آخر الدوام لأنها مرهقة. وقبل أن تغادر المكتب، سألها:

- ما حتسأليني ليه كنت أبيك تجين الشركة؟

- صحيح أنا آسفة. خير يا عمي؟

- عارف إن من يوم اللي صار مع عمّتك سارة، وأنتي تفكّرين في الكلام اللي سمعتيه. وبما ان أبوك ما صار واعي كثير ومو مهتم بحلاله، أكيد أنتي خايفة من بكرا. لكن أنا ما يهون عليّ أشوفك متضايقة أو محتارة أو حتى قلقانة. وعشان كذا حطّيت وديعة باسمك في البنك. وكمان كتبت لك عمارة من عمايرنا اللي على الكورنيش. وهذي الأوراق.

مدّت يدها ممسكة بالأوراق. وعندما وقع نظرها على قيمة الوديعة، ذُهلت:

- ليه تعطيني أنا كل هذا وترفض تعطي عمّتي؟ أنا ما أبغى شي من أحد. لو تبي تريحني جيب لي عبده.

غادرت الشركة إلى المنزل. كانت تعبة كأنها تحمل جبلاً على ظهرها. تمنّت لو أنها تستطيع النوم بضعة أيام كي لا تفكّر في شيء، وتستريح. لكن ذلك من المستحيلات. فهي لا تكاد تغفو ساعتين متتاليتين حتى يوقظها كابوس أو تؤرقها فكرة أو يقلقها سؤال. فما إن وضعت رأسها على الوسادة حتى نامت وقتاً قصيراً. فرأت في المنام منال وهي تدخل غرفتها وعيناها دامعتان. وحين وصلت إلى سريرها عانقتها بقوّة كما لو كانت تريد أن تعبّر عن مدى اشتياقها إليها. وهمست:

- اللّه يعينك.

وأفاقت ليال فور سماعها هاتين الكلمتين، وهي تصرخ من غير وعي، كأن منال لا تزال قبالتها:

- يعيني على أيش؟ احكي يا منال.

سمعت أمّها الصراخ فأسرعت إلى غرفتها واحتضنتها:

- شو أيش بكِ... شو في؟

أبعدتها ليال عنها. فعانقتها الأمّ مجدّداً. عندئذ دفعتها ليال رافعةً صوتها:

- شو فيه؟ لو أنت سألت شو فيه كنتي عرفتي. ولا كنت مستنّية أحد يعرف بداللك. الظاهر مو بس أبوي هو السلبي حتى أنتي. كلكم همّكم نفسكم. كلكم أضعف

من انكم توقفون وتواجهون أي أحد عشان تعرفون الحقيقة. لكن أنا مو ضعيفة. أنا اللي بعرف. ارتاحي وارجعي غرفتك وخليكي في العالم اللي أنتي فيه لأن عالمي ما لك مكان فيه أصلاً.

قالت ذلك وتركت أمّها واقفة مذهولة، وانطلقت إلى الشلال وراحت تبكي، وهي تردّد:

- يعيني على أيش يا منال؟ ليه ما كمّلتي؟ حتى أنتي ما تبين تريحيني؟

مرّت بضع ساعات وهي تسترجع شريط المنام، وتجتهد لمعرفة فحوى الرسالة التي حملتها اليها شقيقتها الراحلة. وفيما هي مستغرقة في التفكير، رنّ هاتفها. إنه السيّد تركي:

- ليال، عبده ما طلع من الشرقية لا برّ ولا بحر ولا جو.

- أنت متأكّد يا عمّي؟

- طبعاً متأكّد. أنتي بس عطيني كم يوم وأنا بجيبه لك هو وأغراضك. كله إلا زعلك.

- أنا ما أبي أكثر من كذا.

كانت تلك المكالمة كحبّة مهدّئة أراحتها بعض الشيء. لكن صوت منال لم يفارقها لحظة واحدة.

صباح آخر جديد. لكن شمسه لا تنير. كان أكثر سواداً مما سبقه. هكذا شعرت ليال عندما تراقصت أشعّته الشاحبة على أحد جدران غرفتها. فقد استيقظت حزينة، تعاني ضيقاً لم تشعر به من قبل حتى يوم رحيل شقيقتها، وإذا بحميدة تُقبل عليها بصينية الفطور:

- عارفة إنك مش طايقة تشوفي وشي. واللّه العظيم أنا ما كنتش عارفة حاجة. يعني معقول أكون عارفة مكان عبده وساكتة؟ ده أنا كنت أكلته بسناني. أنتو بناتي يا ليال. عمري ما قصّرت في حقّ ولا واحدة فيكم.

عندما أتمّت حميدة كلامها، راحت تبكي فتقدّمت ليال نحوها:

- اسمعي. أنا ما قلت إنك تعرفين، لكن لو تبين فعلاً توقفين لبناتك مثل ما تقولين دوّري عليه وجيبيه. وبعدين أنا اللي بَتصرف.

- ومين قال لك إني أنا من ساعتها ساكتة؟ إن شاء اللّه هعرف مكانه. حسبي اللّه ونعم الوكيل. إزاي كان قادر يعيش في خيركم وهو ساكت؟ واللّه ده لو كان على قطع رقبته المفروض كان يتكلّم. منه للّه. ربنا ينتقم منه بحقّ جاه النبي. بس عشان خاطري كُليلك حاجة. أنت بقى لك كم يوم لا أكل ولا شرب.

لم تعبأ ليال بما قالته حميدة. فلم تأكل أو تشرب.

غادرت إلى الشركة كي لا تبقى رهينة الوحدة والأفكار الموحشة. لمّا وصلت صادفت جاسر الذي رمقها بنظرة عاتبة بدون أن ينطق بكلمة لوجود السيّد تركي في جواره. عندما ابتعد الأخير قليلاً قبض جاسر على ذراعيها وسألها:

- أنتي وين كنتي؟ أنا ما قلت لك تردّين على جوّالك؟

أفلتتْ ذراعيها من قبضتيه بحركة منفعلة. ونادت السيّد تركي وراحت تمشي معه حتى مكتبه. ثم انصرفت إلى مكتبها رافضةً أن تقابل أحداً. فقد كان مزاجها معكراً، وتفكيرها مشوّشاً. وعندما انتهى الدوام عادت إلى المنزل.

(٣٨)

أمضت ثلاثة أيام متشابهة. لا جديد فيها سوى استمرار حالة الضيق المسيطر عليها، والذي يزداد يوماً بعد يوم. وكانت متّجهة إلى العمل حين وصلتها رسالة على الجوّال تفيد بأنها نجحت بتفوّق في السنة الجامعية الأخيرة. لم تشعر بأي شيء، كأن إحساسها تبلّد. أو كأن الأمر لا يعنيها. لكن نجاحها وتخرّجها في الجامعة أسعدا والدها إذ شعر أن بإمكان ابنته أن تتحسّن وتعود إلى حياتها الطبيعية، وكانا سبباً في تحسّن حالته الصحية، وحافزاً له على السفر إلى الخارج بعد أن أقنعه محامي العائلة بضرورته، لتسلّم ما تركه له والده، وخصوصاً أن وقتاً طويلاً مضى على ذلك.

لدى العودة بعد سفر دام يومين، وصل السيّد أحمد إلى المنزل مساءً. دخل غرفته. جلس وراء مكتبه ووضع أمامه الظّرف الذي يحتوي على رسالة أبيه. فتحه لكنه لم يقرأ الرسالة فأبقاها مع الأوراق في أحد أدراج المكتب، وشاء أن يرى ليال قبل أن تنام.

في هذه الأثناء، كانت ليال قد وصلت إلى ذروة الضيق. وبرغم ذلك فضّلت البقاء وحيدة في غرفتها. وعندما أراد والدها الدخول حاولت حميدة إقناعه بالعدول لأن ابنته في حالة نفسية سيئة جداً. لكنه أصرّ. حين رأى ليال، قال:

- هي وصلت لدرجة إن اللي يشتغلون عندي يمنعوني إني أشوفك؟

فردّت حميدة:

- حاشا للّه يا سي أحمد. دي بنتك. أنا مش عوزاكم تزعلوا من بعض. ده أنا بدعي ربّنا أنه يهدي النفوس.

قاطعتها ليال قائلة لوالدها:

- خير؟ وش تبي مني؟

- وش ابي؟ هو الأب وش يبي من بنته؟

- الأب؟ وين الأب هذا؟

ثم وجّهت الكلام إلى حميدة بحركة مسرحية ساخرة:

- أنت شايفة هنا أحد ممكن ينقال عليه أب يا دادة؟

فأجابت حميدة محاولة التهدئة:

- استهدي باللّه يا بنتي.

واستأنفت ليال سخريّتها:

- الأب يا سيد أحمد بياخذ حقّ بنته بيده، مو اللي يسكت على اللي قتل بنته، ويدخل ويسكّر الباب على نفسه، ويقعد ينحت تماثيل ويقول وحشتني أبي أشوفها. خلّيك أنت وأمي في اللي انتم فيه، هذا أكثر شي ممكن تسوّوه. كل واحد في غرفة وبزيادة عليكم.

آثر السيّد أحمد السكوت. وفيما هو يستدير كي يعود إلى غرفته، انهار وسقط مغشياً عليه. هرعت حميدة واتّصلت بالإسعاف ونُقل على جناح السرعة إلى المستشفى، ورافقته ليال وحميدة. خلال إجراء الإسعافات العاجلة والفحوص الضرورية، ساورت ليال مشاعر متضاربة نحوه. وهذا ما أضاف إلى حزنها العميق حزناً جديداً.

ولمّا ظهرت النتائج، قابل الطبيب ليال في مكتبه:

- آسف، الوالد أصيب بجلطة في المخّ، وضروري تدخّل جراحي. وهذا ممكن يأثّر على حركته أو على قدرته العقلية.

- متى يطلع من العناية؟

- حسب حالته. من الواضح أنه تعرّض لصدمة قوية.

وكان قد أتى على الفور السيّد تركي وجاسر والسيّدة سارة بعد أن أبلغتهم حميدة الخبر. لم تتحدّث ليال مع

أيّ منهم. ظلّت تتأمّل في وجوه الثلاثة التي بدت متجهّمة حزينة، وتساءلت في قرارة نفسها: «هل الحزن والقلق اللذان يظهران عليهم حقيقيان أم زائفان؟ وما سببهما؟ لماذا لم يزره أحد منهم عندما كان في عزلته؟».

لم تستطع لجم غضبها وتذمّرها طويلاً، فحوّلت نظرها إلى السقف، وقالت:

- الحين ليه هالقلق كلّه؟ أصلاً وش جابكم؟ ولاّ خايفين الناس تعرف إن ولدكم في المستشفى وأنتم مو معه؟ هذا اللي يهمّكم كلام الناس! ويوم ما كان مرمي في البيت ما حدّ منكم طلّ عليه، لأن ما في أحد يشوف من داخل ومن طالع. عموماً أنا بخلّيكم معه. وإذا حابّين تنامون أنا أخذتْ جناح عشان ضيوفكم. وأنا بروح بيتي أنام لأن مو هاممني لا هو ولا الناس.

نزل كلامها كالصواعق عليهم، فذُهلوا. حتى حميدة غير المعنية بذلك الكلام، دُهشت. فجّرت ليال القنبلة وغادرت في هدوء. وكانت عمّتها أول من علّق:

- أيش فيها ليال؟ أكيد انهبلت.

وتلاها تركي:

- اللّه يعينها على اللي هي فيه، واللي هي عايشته من يوم ما توفّت منال. لو إحنا ما تحمّلناها فهالظروف الصعبة مين بيتحمّلها؟

(٣٩)

كانت ليال في الشركة تلاحق تنفيذ مهمّة موكلة إليها، عندما رنّ الهاتف في مكتبها، فإذا بوالدها على الخطّ الآخر:

- ليال، أنا تعبان وحاسس إني ما باقي لي كثير. تعالي يا بنتي ابي أشوفك.

- نصّ ساعة وأكون عندك.

تلقّت حميدة في الوقت نفسه اتّصالاً هاتفيّاً من عبده طلب خلاله مقابلتها لأن لديه معلومات خاصة، وليس مستحسناً قولها عبر الهاتف، واشترط أن لا تكشف هُويّة ناقلها. وافقت لكنها لم تعده بأنها ستنفّذ الشرط. لم يعترض. في الموعد المتّفق عليه، التقيا في أحد الأسواق. روى لها أنه رأى السيّد تركي وهو يحبس أنفاس منال بعد أن اغتصبها جاسر. وتأكّد له ذلك عندما سمع تركي يأمر جاسر بالصعود إلى غرفته

وتغيير ثوبه، وبأن لا يجعل أحداً من الخدم يرى الدم الذي يكسوه.

استوقفته حميدة:

- معقول الكلام ده؟ دي حاجة لا يمكن حدّ يصدّقها. دي شرفهم وعرضهم؟ مستحيل!

- لما نزلتم انت وليال وأبوها وأمّها، أنت أغمي عليك في نصّ الجنينة لما سمعتي صرخة الست نوّارة ودوكي غرفتك. اللي شاف منال كان أنا وليال والسيّد أحمد والستّ نوّارة. وبعدها شالها السيّد أحمد ودخلها غرفة المكتب. وطلع وقال لو أحد سأل كيف ماتت ينقال طاحت وراسها اتخبط في الحجر وتوفّت. كأنه يا حميدة مسحور كان بيتكلّم بطريقة غريبة. بصراحة أنا كنت مرعوب من اللي ممكن تركي يعمله فيّا أنا وعيالي لو قلت اللي أنا شفته لعم عادل أو السيّد أحمد. لكن اللي قدرت عليه وأخذته عهد على نفسي إني احمي المسكينة أختها عشان كده كنت ما بخليهاش تغيب عن عيني لغاية ما كبرت واطمنت أن ما فيش حد هيعرف يضرّها. سفّرت عيالي وهسافر لهم لكن كان لازم أقول لك عشان لو ربّنا افتكرني أكون بلغت حد يظهر الحقيقة.

صمت مفاجئ اجتاح حميدة، قطعه عبده:

- أنتي سمعاني يا حميدة؟

التفتت اليه وقالت:

- حسبي اللّه ونعم الوكيل.

ثم نهضت متّجهةً إلى السيارة، وهي تفكّر في شيء واحد:

- يا عيني عليكي يا ليال لو عرفتي مين اللي عمل كده في اختك، إيه اللي حيجرى لك؟

وقبل أن تصل إلى المنزل، كانت ليال قد سبقتها إليه بعد أن ذهبت إلى المستشفى مع السيّد تركي وجاسر، ورأت والدها في حالة حرجة جدّاً. ولكي تهرب من الموقف طلبت منهما أن يلازماه حتى تذهب وتجلب له بعض الملابس.

وصلت إلى المنزل. دخلت غرفته. راحت تتفحّص التماثيل. فتحت أدراج المكتب. لفتها ظرف تحت كومة من المستندات والأشياء الصغيرة، فأخرجت ما فيه من أوراق. شعرت بخنجر يمزّق قلبها عندما بدأت تقرأ الرسالة الآتية:

ولدي العزيز أحمد

حينما تقع هذه الرسالة في يدك، سأكون في رحاب اللّه. أردت أن أريح ضميري وأرجو أن تسامحني في ما ستقرأه الآن. ولتعلم جيداً أن إرادة

اللّه فوق كل شيء وأن الموت حق مكتوب علينا جميعاً.

الحقيقة المؤلمة التي عذّبتني طوال السنوات الأخيرة حتى هذه اللحظة التي أخط فيها هذه السطور، هي أنني أنا الذي جعلت منال (رحمها اللّه) تأخذ سرّها معها كي لا يلحق بها العار، وبالعائلة شماتة الناس. أعلم أن هذا الكلام سيصيبك بصدمة لكن ما في اليد حيلة.

ما حدث في الليلة المشؤومة أنني رأيت جاسر في الحديقة مرتبكاً وأدركت أنه فعل شيئاً فظيعاً بمنال.

نعم يا ولدي لقد اغتصبها.

وحينما ذهبت لأطمئن عليها وجدتها ملقاة قرب الشلال وهي غارقة في دمائها. وتأكدت من همهمتها وإشاراتها أن جاسر هو الذي فعل بها هذه الفعلة الشنعاء التي ربما لا تقل عما أقدمت أنا عليه. تردّدت. كنت مرتبكاً تماماً، وسألت نفسي: ماذا لو ظلّت هذه المسكينة على قيد الحياة؟ شُلّ تفكيري للحظة ووجدتني أخلّصها من العار والعذاب وأنقذ كرامتك وشرفك، وكرامة العائلة وشرفها.

اعذرني يا ولدي، لم أشأ أن تكون تلك هي نهاية منال أو أن تكون حال عائلة حمد على هذا النحو. لكن ما حدث قد حدث.

سامحني وادعُ أن يغفر ربي لي ذنبي.

أبوك

عادل حمد

وما إن انتهت ليال من قراءة الرسالة حتى كادت تفقد صوابها. فراحت تحطّم كل ما وجدته في طريقها، ثم أخذت تضرب برأسها الحائط، وترفس بقايا التماثيل المنتشرة في الغرفة. ولكمت إحدى المرايا فكسرت زجاجها وجرحت يدها فانساب الدم على ذراعها. فتحت الباب وغادرت المكان قافزة على السلّم ثلاث درجات أو أربعاً في وثبة واحدة. دخلت غرفتها، جلبت المسدس الذي أهداه إليها السيّد تركي. رأتها أمّها تحمل السلاح فسدّت الباب كي تمنعها من الخروج. كانت ليال كالعاصفة التي تقتلع كل ما يصدّ قوّتها، دفعت أمّها من كتفيها فأسقطتها أرضاً، وأكملت الجري في سرعة جنونية. التقت عند أسفل الدرج حميدة التي سألتها وهي في منتهى الارتباك:

- أنتي رايحة فين؟ وإيه اللي في إيدك ده؟

- خلّيني أنا بنتقم لك يا منال. صدقتي اللّه يعيني.

- أنتي عرفتي ازاي؟ ده عبده لسه قايل لي. انت مين قال لك؟

لم تردّ. بل ازداد جريها سرعة كما لو أنها خائفة أن يفرّ المجرم إلى جهة مجهولة، فتفقد أثره. كانت تعدو ولديها رغبة واحدة: الانتقام. تركض وتردد:

- معترف في رسالته كيف موّتها. كيف يقتلها ويطلب من أبوها السماح.

ونجحت حميدة في ملاقاتها من طريق مختصر، هي العارفة جيداً ممرّات المنزل كلها وجميع الطرق المؤدية إليه، فوقفت في وجهها، وعلا صوتها لعلّها تسمع:

- جواب إيه؟ هو تركي هيكتب جريمته في جواب؟

لفت ليال اسم تركي ونظرت إلى حميدة بغضب:

- تركي؟ وش قاعده تقولين.

وحكت حميدة. عندما سمعت ليال ما رواه عبده، دفعت بحميدة بعيداً عنها، لكن حميدة لم تستسلم فركضت وراءها وصعدت إلى السيارة. نهرت ليال السائق وأمرته أن يذهب في أقصى سرعة إلى المستشفى. في الطريق، حاولت حميدة أن تهدّئها بكلمات مغلّفة حتى لا

يفهم السائق. وليال في عالم آخر، تُركّب أحداث القّصة في عقلها، فاستوعبت ما حدث. فقد ترك تركي منال غارقة في دمائها، ولم تكن قد فارقت الحياة بعد، ثم جاء عادل وأجهز عليها. وصلت السيارة إلى باب المستشفى. دخلت ليال وهي في حال هستيرية شديدة، وحميدة تهرول وراءها ممسكة بعباءتها، وهي تردّد:

- استعيذي من الشيطان اللّه يهديك...

في تلك الأثناء، كانت ليال تنظر إلى كل مَنْ حولها، وتتساءل كيف يوجد هذا الكم من الشرّ في عائلة واحدة، ومن يستطيع أن يشعر بما في داخلها، ومن يستحقّ الموت. هل هو الجدّ عادل الذي قضى عليها متحجّجاً بصون شرف العائلة، أم تركي أم جاسر أم أبوها بعدما اتّضح لها أنه كان يعرف ماذا حدث، وكتم السرّ؟ ومِن الأربعة مَن هو القاتل الحقيقي؟ وتقوى لديها الرغبة في الانتقام كلما عاودت التفكير في أن منال قُتلت أربع مرّات، مرة عندما اغتُصبت، ومرة عندما حاول عمّها قتلها، ومرة عندما أكمل الجدّ ما بدأه الأول والثاني، ومرة عندما ارتضى والدها السكوت والانكفاء ولم يأخذ بالثأر. وحدّثت نفسها بأن موت شقيقتها قد يكون راحة لها، لكن لماذا يقرّر شخص آخر ذلك، يقرّر الطريقة ويعيّن الزمان والمكان؟ ومن أعطاه الحقّ في قتل الناس

ووضع حدّ للأعمار؟ ثم فما معنى الحياة إنْ كانت تنتهي بتلك السهولة؟ تساؤلات رافقتها إلى باب الغرفة. أقصتْ حميدة عنه ودخلت. أغلقت باب الجناح بالقفل ثم باب الغرفة، وهي تمسك بالظّرف في يد، واليد الأخرى في الحقيبة قابضة على المسدس. وما إن رأتهم حتى شهرته وهي تنوح نواحاً عالياً، وستّ أعين مصوّبة نحوها وتكاد تنفجر من الخوف.

ودوّت رصاصة واحدة، فهوى شخص واحد.

إلى مَنْ يظنون أن اليقين أعدل من الشكّ. أنتم مخطئون. فظلم الشكّ أفضل من عدل اليقين أحياناً.


Twitter: @ketab_n

وُجدت منال جثّة هامدة بعد اغتصابها. حفاظاً على سمعة العائلة، اتّفق كبارها على الادعاء أن الوفاة جاءت نتيجة ارتطام رأسها بأحد الأحجار.

أبوها يعرف أنها قُتلت. لكنه يعضّ على الجرح، ويلوذ بالصمت. يعتزل الناس، ويصبح أسير غرفته، ينحت تماثيل تجسّد ابنته الراحلة.

شقيقتها التوأم، ليال، ساورتها الشكوك، فقرّرت كشف ملابسات الجريمة، ومعرفة الحقيقة.

وكانت المفاجأة صاعقةً عندما فتح البستانيّ العجوز قلبه، وحكى ما رآه ليلة مصرع الفتاة البريئة.

لمياء بنت ماجد بن سعود حازت بكالوريوس في التسويق الإعلاني والعلاقات العامة والصحافة من جامعة مصر الدولية، القاهرة، ٢٠٠١. أسّست وأدارت شركة «صدى العرب للنشر». أصدرت ثلاث مطبوعات باللغتين العربية والإنجليزية. نشرت مقالات في صحف ومجلات عربية عدّة.


ISBN 978-1-85516-648-6
9 781855 166486 >

